الولاية بين الإثبات والنفي

دكتور / أحمد شاكر عبدالعزيز
مدرس الفلسفة الإسلامية – قسم العلوم الاجتماعية
بكلية التربية – جامعة دمنهور

ملخص البحث باللغة العربية:

فإن موضوع بحثى هو الولاية بين الاثبات والنفى، وهذا الموضوع من الموضوعات الشائكة والشيقة، فهو حديث من أرض الواقع، ومن خلال مشاكل الممارسة وقضايا التطبيق، ومن ثم فإن معطياته وأحكامه، و "الصياغات النظرية" التى يمكن الخروج بها من مثل هذا الحديث، إنما هى وثيقة الصلة بهذا الواقع، نابعة منه، وأيضاً منطلقة من ميدانه إلى حيث التعميم والتقنين والكليات. فالولاية من حيث الواقع هى الارتباط والالتزام بتعاليم الكتاب والسُنة، أى أن العبادة والطاعة هى الواقع والحقيقة بالنسبة للولى، عكس ما روج له بعض المنتسبين إلى التصوف من جعل الولاية وصولاً دون شرع أو تكليف. فنحن أمام تصوران، ففى مقابل الذين ربطوا ما بين العلم والممارسة، والنظرية والتطبيق، والإيمان والعمل، نجد الذين فصلوا ما بين الاثنين، وقالوا أنه لا تضر مع الايمان معصية، وحكموا بالجنة للعصاة الظالمين، فأورثوا أنفسهم، كما أورثونا، تخلفاً فى العلم وتخلفاً فى العمل، وضحالة فى الفكر، ونفاقاً استشرى فى الحياة العملية لازلنا نعانى منه حتى الآن.

فإن الولى يسقط أوصاف نفسه، فلا يرجع إلى مأوى أو معلوم، بل يعتمد دائماً وأبداً على فضل الله تعالى، فهم – الأولياء – الذين تعروا عن أفعالهم وأوصافهم وأقوالهم وأذكارهم وطاعاتهم، فلم يطمئنوا إلى شئ من ذلك، ولا نظروا إليه لفنائهم عن جميع أوصافهم. وهذا الفناء لا يعنى أن فنائهم من أوصافهم دخلوا فى أوصاف الحق، فإن الله تعالى وتقدس لا يحل فى القلوب ولكن يحل فيها توحيده وتعظيمه وهيبته. فإن مفهوم الفناء الصحيح عند الأولياء هو فناء أوصاف العبد والدخول فى أوصاف الحق، الفناء التام من إرادته ودخوله فى مراد الحق، فلا يكون له مراد مع مراده فيه فما أراد الله به أراده لنفسه فهو فناء أوصافه واتصافه بالحق. وهذا عكس مفهوم "قطب

الأقطاب" التى تندرج تحت إشراقه كليات الوجود، فقد اشتمل على الجزيئات، فهو لوح القضاء والدرة البيضاء، وبالتالى فهو مبدأ الوجود وأصل الحياة والتكوين، وواسطة الخلق، ومنبع العلم. وهذا التعريف للقطب وصل بفلاسفة الصوفية إلى نظرية "الهو هو" وأضافوا أنفسهم إلى معنى يؤديهم بجهلهم إلى القول بالحلول وإلى شبيه من مقالة النصارى فى المسيح.

إن الولاية المثبتة أى المقبولة عند أهل السُنة والجماعة هى: الولاية القائمة على أداء العبادات والطاعات الكاملة لله، والسؤال هنا لماذا نتحدث عن الولاية المنفية أو المرفوضة؟، وهى الولاية التى تسعى إلى ترسيخ مبدأ انفصام الأمة وعلماؤها عن الواقع واقصد بالواقع الممارسة والتطبيق العملى التى تعبر عنه الشريعة والتكاليف الدينية. فكما قصد أبويزيد البسطامى: هذا رجل غير مأمون على أدب من آداب الشريعة، فكيف يكون أميناً على أسرار الحق؟.

الكلمات الدليلية: الولاية، النبوة، القطب، الغوث، الأبدال، النجباء، الشيعة الباطنية، الإلهام، التمكين.

المقدمة:

نعوذ بالله من رين القلوب، وهوى النفس اللذين يصدان عن معرفة الحق واتباعه. والصلاة والسلام المستمران على خير الأنام سيدنا محمد وعلى آله خير آل إلى يوم الدين بلا انقطاع.

أما بعد .

فإن موضوع بحثى هو الولاية بين الاثبات والنفى، وهذا الموضوع من الموضوعات الشائكة والشيقة، فهو حديث من أرض الواقع، ومن خلال مشاكل الممارسة وقضايا التطبيق، ومن ثم فإن معطياته وأحكامه، و "الصياغات النظرية" التى يمكن الخروج بها من مثل هذا الحديث، إنما هى وثيقة الصلة بهذا الواقع، نابعة منه، وأيضاً منطلقة من ميدانه إلى حيث التعميم والتقنين والكليات.

أولاً: أهمية الموضوع:

فالولاية من حيث الواقع هى الارتباط والالتزام بتعاليم الكتاب والسُنة، أى أن العبادة والطاعة هى الواقع والحقيقة بالنسبة للولى، عكس ما روج له بعض المنتسبين إلى التصوف من جعل الولاية وصولاً دون شرع أو تكليف. فنحن أمام تصوران، ففى مقابل الذين ربطوا ما بين العلم والممارسة، والنظرية والتطبيق، والإيمان والعمل، نجد الذين فصلوا ما بين الاثنين، وقالوا أنه لا تضر مع الايمان معصية، وحكموا بالجنة للعصاة الظالمين، فأورثوا أنفسهم، كما أورثونا، تخلفاً فى العلم وتخلفاً فى العمل، وضحالة فى الفكر، ونفاقاً استشرى فى الحياة العملية لازلنا نعانى منه حتى الآن.

فإن الحارث المحاسبى (ت ٢٤٣هـ) يقول: "من صحح باطنه بالمراقبة والاخلاص زين الله ظاهره بالمجاهدة واتباع السُنة".[١] إن الولاية الحقيقية عند أقطاب الصوفية رجال لا يختصون عن غيرهم بأى شئ، فإن الولى هو الكامل فى ذاته،[٢] وما اختلفت الأعمال إلا من جهة المقاصد، وما تفاوت الناس إلا من جهة الإخلاص. فالخلق كلهم عبيد للملك المجيد، وما وقع الاختصاص إلا من جهة الاخلاص. فمن كان أكثر اخلاصاً لله كان أولى من غيره بالله، وبقدر ما يقع للعبد من الصفاء يكون له من الاصطفاء، فالصوفية والعلماء والعباد والزهاد وأهل الأسباب على اختلاف أنواعهم كلهم عاملون لله، ليس أحد منهم بأولى من غيره بالله إلا من جهة الاخلاص وإفراد

(١) جامى، نفحات الأنس، تحقيق د/ محمد أديب الجادر، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت، ص١٤٥.

(٢) فخر الدين الرازى، معالم أصول الدين، تحقيق، سامى عفيفى حجازى وآخرون، مركز الكتاب للنشر، ط١، القاهرة، ٢٠٠٠م، ص٧٥.

القلب لله، فمن ادعى الاختصاص بالله من غير هذه الوجهة فهو كاذب، ومن اعتمد على عمل غيره فهو مغرور، يقال له: "تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ".(١) [البقرة/١٤١].

فإن التفاضل بين الرجال إنما يكون بالعلم والحال، يقول أبوحفص النيسابورى (ت ٢٦٤هـ): "من لم يزن الأفعال والأقوال والأحوال على ميزان الكتاب والسُنة، ولم يتهم الخواطر فى كل و قت، فلا يعد من الرجال".(٢) فمن قوى علمه بالله كان أعظم قدراً عند الله، والعلم الذى به الشرف عند الله إذا حصل معه العلم بالله، فكلما انكشف الحجاب عن القلب كان أقرب إلى الرب، فانكشاف الحجاب يكون على قدر التخلية والتحلية، فبقدر ما يتخلى القلب عن الرذائل، ويبعد عن القواطع والشواغل، ويتحلى بأنواع الفضائل، ينكشف عنه الحجاب ويدخل مع الأحباب، وبقدر ما يتراكم على القلب من الخواطر والشواغل، ويدخل عليه من المساوئ والرذائل، يقع البعد عن الله، ويطرد العبد عن باب الله، فلا يدل على كمال العبد كثرة الأعمال، وإنما يدل على كماله علو الهمة والحال، وعلو الهمة على قدر اليقين، وقدر اليقين على قدر المعرفة، والمعرفة على قدر التوجه والتصفية، والتوجه تابع للقسمة الأزلية. "ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ" [الجمعة/٤].

إن الولاية المثبتة أى المقبولة عند أهل السُنة والجماعة هى: الولاية القائمة على أداء العبادات والطاعات الكاملة لله، والسؤال هنا لماذا نتحدث عن الولاية المنفية أو المرفوضة؟، وهى الولاية التى تسعى إلى ترسيخ مبدأ انفصام الأمة وعلماؤها عن الواقع واقصد بالواقع الممارسة والتطبيق العملى التى تعبر عنه الشريعة والتكاليف الدينية. فكما قصد أبويزيد البسطامى: هذا رجل غير مأمون على أدب من آداب الشريعة، فكيف يكون أميناً على أسرار الحق؟.(٣)

فلماذا هذا النوع أو المفهوم من الولاية مرفوض؟ وإذا كان مرفوضاً، فلماذا نقوم بدراسته؟ نقوم بدراسة هذا النوع، ذلك لأن أصحاب الحكمة قد قالوا قديماً، وهم صادقون تماماً: "والشئ يظهر حسنه الضد". كما قالوا كذلك. "وبضدها تتميز الأشياء". فنحن إذا شئنا الفهم العميق لوجهة النظر المتقدمة والمفيدة لنا فى تطورنا الحضارى، لابد لنا من دراسة النقيض، والتى جاءت وجهة النظر المتقدمة هذه كثمرة للصراع

(١) ابن عجيبة، البحر المديد فى تفسير القرآن المجيد، تحقيق، عمر أحمد الراوى، دار الكتب العلمية، ط٢، جـ١، بيروت، ٢٠٠٢م، ص١٧٣.
(٢) جامى، نفحات الأنس، مصدر سابق، ص١٨٠.
(٣) القشيرى، الرسالة، مكتبة ومطبعة محمد على صبيح، القاهرة، د.ت، ص٢٢٣.

الفكرى ضده، لأن وجهتى النظر هاتين هما وجها عملة واحدة، هى الحياة الفكرية التى أثمرتها حياة هؤلاء المفكرين الكبار.

وهذا المفهوم الخاطئ للولاية والدخيل على الحضارة الإسلامية يستهدف عزل الانسان المسلم عن شريعته التى تمثل واقعه وحياته المعاشة، وأننا إذا شئنا أن نجنب أمتنا وحضارتها المرجوة مأساة ذلك الانفصام الذى تشهده الحضارة الغربية اليوم ما بين التقدم فى تطبيقات العلوم "التكنولوجيا، وما بين التخلف، إن لم نقل الانحلال والانحطاط، فى القيم الانسانية، اللذين يفترسان أغلب قطاعاتها الفكرية والبشرية، أننا إذا شئنا أن نجنب أمتنا وحضارتها ذلك الخطر، وتلك المأساة وآثارها المدمرة، فلابد من أن نلقى أشد الأضواء على صفحات تراثنا العربى الاسلامى وليكن ممثلاً فى مسألة الولاية التى تؤكد على ضرورة الربط ما بين الفكر والممارسة، والنظرية والتطبيق، والعقيدة والفعل، والايمان والعمل، لأننا إذا استطعنا أن يكون تراثنا فى هذا الباب منطلقاً لنا فى هذا الطريق كانت لنا امكانيات النجاة مما يعانى منه الآخرون، مما يهدد روح حضارتهم وجوهريات انسانيتهم بالتحلل والدمار.

لذلك نحاول جاهدين فى هذا البحث أن نبين مفهوم الولاية القائم على العبودية، موضحين أخطاء بعض طبقات الصوفية التى توهمت أن العبد بينه وبين الله بُعد باسمه عبداً، فإذا صار حراً من التكاليف الشرعية وسقطت عنه العبودية قرب منه. وهذا غلط كبير، فيقول الجنيد (ت ٢٩٧هـ): "إنما مُنعوا من الوصول لتضييع الأصول".[١] فإن اسم العبودية أتم لأن الله تعالى سمى أولياءه عباده، وسمى ملائكته عباده، وقدم للنبى – صلى الله عليه وسلم – العبودية على النبوة فى التشهد فقال: "وأشهد أن محمداً عبده ورسوله"، ولا مقام أبلغ من مقام النبى – صلى الله عليه وسلم – وكان يصلى حتى تورمت قدماه فقيل له فى ذلك فقال: "أو لا أكون عبداً شكوراً". فإن الدين كله داخل فى العبادة، بل والعبادة بوصفها داخلة فيه هو فى جوهره الشعور الباطنى الذى يتعلق به المخلوق بخالقه، وقوامه المحبة لله وحده والطاعة لأوامره والانتهاء عن نواهيه، بل إن كل ما يفعله العبد فى علاقته بمعبوده، إن هو إلا ترجمة لهذا الشعور الباطنى الذى يربطه به، ولهذا قال تعالى: "إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ" [الصافات/٤٠]. وقوله: "إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ المُخْلَصِينَ" [ص/٨٣]، فالعبودية هى تمام الإخلاص لوجه الله، لهذا نرى آيات كثيرة تصف حال العبودية بأفضل حال لمثل قوله: "وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى

(١) السلمى، رسالة فى غلطات الصوفية، تصحيح، عبدالفتاح أحمد الفاوى محمود، ضمن كتاب مجموعة آثار أبوعبدالرحمن سُلَمى، مؤسسة مطالعات اسلامى، طهران، ١٣٨٨هـ، ص٤٧٤.

رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وعَذَابٍ" [ص/٤١]، وكذلك قوله: "واذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وإِسْحَاقَ ويَعْقُوبَ أُولِي الأَيْدِي والأَبْصَارِ" [ص/٤٥]، وكذلك قوله: "نِعْمَ العَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ" [ص/٣٠].

العبودية هى مسار ومعيار الحكم على الولاية الصادقة، فنجد رجل يُعرف بأبى شعيب يتنسب إلى الصوفية، يزعم أن الله يُسر ويفرح بطاعة أوليائه، ويغتم ويحزن إذا عصوه. وفى النُساك قوم يزعمون أن العبادة تبلغ بهم إلى منزلة تزول عنهم العبادات وتكون الأشياء المحظورات على غيرهم من الزنا وغيره مباحات لهم. وفيهم من يزعم أن العبادة تبلغ أن يروا الله – سبحانه!– ويأكلوا من ثمار الجنة، ويعانقوا الحور العين فى الدنيا، ويحاربوا الشياطين. ومنهم من يزعم أن العبادة تبلغ بهم إلى أن يكونوا أفضل من النبيين، والملائكة المقربين.(١)

هذه الصور للعبادة بالتأكيد لا تعبر عن حال الولى الصادق، لأن هذه الصور تؤدى إلى حياة المجون والفجور وهى دعوة المزدكية الثنوية وهى دعوة فى الأصل لإبطال التكاليف، بل هى دعوة صريحة إلى الحلول ومن كانوا ذلك فهم زنادقة وليسوا أولياء، يقول الجنيد: "إن الحق سبحانه لا يوصف بالحلول فى الأمكنة ولا ينعت بمرور الأزمنة. كان الحق تعالى ولا شئ موجود ولا شخص معبود؛ فكيف يصير بحالة كان فى الأزل عنها غنياً؟ وكيف ينتقل بانتقال الفناء جلّ وتعالى أن يوصف بشئ من هذه العلل".(٢) فكيف يجوز أن يحل الحق فى شخصٍ هو أنشأه ملازماً للنقص وكان عنه مستغنياً؟، وهو القاهر بجباريته البائن بصفاته عن صفات خليقته. كان ولا مكان ولا زمان وهو الآن كما كان.

ثانياً: إشكالية البحث:

أما إشكالية البحث فهى غنية ومتشابكة ومتداخلة لأهمية تلك المسألة، فكان التساؤل الأول هو: ما مفهوم الولاية؟ وما هى صفات وأوصاف الولى؟ ما هى مكانة الولاية فى القرآن والسُنة؟ وهل يجوز أن يعرف الولى أنه ولى؟ أم لا؟ وهل يكون الولى محفوظاً؟ أم لا؟ ومتى يتم استدراج الولى؟ ما مصير من ينكر الولاية ويتهكم على أصحابها؟

(١) الأشعرى، مقالات الإسلاميين، جـ١، تحقيق، محمد محى الدين عبدالحميد، مكتبة النهضة المصرية، ط٢، القاهرة، ١٩٦٩م، ص٢١٨.

(٢)السُلمى، رسالة فى غلطات الصوفية، تصحيح، عبدالفتاح الفاو، مصدر سابق، ص٤٨٠.

ثالثاً: المناهج المستخدمة:

سلكت فى هذا البحث المنهج التحليلى التركيبى المقارن، مع الاهتمام بتحليل آراء مشايخ الصوفية فى مفهوم الولاية والالتزام بالكتاب والسُنة فى بسط هذه الآراء أى أن معيار حكمى على صدق أو كذب الفكرة أو الرواية يكون الكتاب والسُنة، وهذا الالتزام سيرسم المنهج الصحيح فى تحديد مفهوم الولاية النابعة من بيئة الإسلام ويشكل سمت المسلمين.

رابعاً: خطة البحث:

يتكون البحث من مقدمة وخاتمة وقائمة بالمصادر والمراجع وثلاثة مباحث ، **المبحث الأول يدور حول مفهوم الولاية** وفيه مطلبين: المطلب الأول: تعريفات الولاية، المطلب الثانى: العبادة هى طريق الولى إلى الله، **المبحث الثانى: شروط صحة الولاية**، وفيه مطلبين: المطلب الأول: الولى معصوم أم محفوظ، المطلب الثانى: الولى بين الخوف والرجاء، أما **المبحث الثالث: أصل نشأة الولاية**، وفيه مطلبين: المطلب الأول: مصطلح الولاية فى القرآن والسنة، المطلب الثانى: تطور مفهوم الولاية.

فكان يقول الواسطى: "علامة الولى ثلاثة: شغلة بالله، وفراره إلى الله، وهمه إلى الله".[1] اللهم اجعل همومنا مع الله وشغلنا دائماً بالله وفرارنا من كل شئ إلى الله، واجعل حالنا كحال الأولياء فى الدنيا أشرف منها فى الآخرة لأنه جذب سرهم إلى سره وغيبهم عن كل ما سواه، وهم فى الآخرة كما قال تعالى: "فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ" [يس/٥٥].

(١) القشيرى، الرسالة، مصدر سابق، ص٢٢٥.

المبحث الأول : مفهوم الولاية

المطلب الأول: تعريفات الولاية

الولى: فعيل بمعنى الفاعل، وهو من توالت طاعته من غير أن يتخللها عصيان، أو بمعنى المفعول فهو من يتوالى عليه إحسان الله وأفضاله. والولى هو العارف بالله وصفاته بحسب ما يمكن المواظب على الطاعات، المجتنب عن المعاصى المُعرض عن الانهماك فى اللذات والشهوات.(١)

فهذا المعنى يؤكد على أن الولى هو الذى توالت أفعاله على الموافقة.(٢) قال تعالى: "هُنَالِكَ الوَلايَةُ لِلَّهِ الحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً وخَيْرٌ عُقْباً" [الكهف/٤٤]. اذن الولاية ضد العداوة، وأصل الولاية "المحبة والقرب"، وأصل "العداوة": "البغض والبعد" وقد قيل أن الولى سُمى ولياً من موالاته للطاعات أى متابعته لها. والولاية: بفتح الواو: فهى فى حقيقة اللغة بمعنى النصرة، والولاية بكسر الواو: فهى الامارة، وكلتهما مصدر ولى. والولاية أيضاً: بمعنى الربوبية، لأن الكفار يتولونه ويرجعون إليه، ويتبرأون من معبوداتهم. والولاية أيضاً بمعنى المحبة.(٣)

كل هذه المعانى تؤكد على أن الولى هو فى كنف ورعاية الله سبحانه وتعالى، لهذا جاز أن يكون "ولى" وهى "فعيل" بمعنى مفعول، كما قال الله تعالى: "وهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ" [الأعراف/١٩٦]. لأن الله تعالى لا يدع عبده لأفعاله وأوصافه، ويحفظه فى كنف حفظه. وجائز أن تكون "فعيل" بمعنى المبالغة فى الفاعل، لأن العبد يتولى طاعته، ويداوم على رعاية حقوقه، ويعرض عن غيره، فهذا مريد، وذاك مراد. فعبادته تجرى على التوالى، من غير أن يتخللها عصيان وكلا الوصفين واجب حتى يكون الولى ولياً: يجب قيامه بحقوق الله تعالى على الاستقصاء والاستيفاء، ودوام حفظ الله تعالى إياه فى السراء والضراء.(٤)

وجميع هذه المعانى جائزة من الحق إلى العبد، ومن العبد إلى الحق، لأنه يجوز أن يكون الله تعالى ناصر أحبائه، إذ أنه تعالى وعد أحباءه من صحابة النبى وقال: "ألا إنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ" [البقرة/٢١٤]. وقال أيضاً: " وأَنَّ الكَافِرِينَ لا مَوْلَى لَهُمْ

(١) الجرجانى، التعريفات، تحقيق عبدالمنعم الحفنى، دار الرشاد، القاهرة، ١٩٩١م، ص٢٨٢.

(٢) السلمى، التفسير، جـ١، تحقيق سيد عمران، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٢م، ص٣٠٧.

(٣) الهجويرى، كشف المحجوب، جـ٢، ترجمة د/ اسعاد عبدالهادى قنديل، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٧م، ص٤٤٣.

(٤) القشيرى، الرسالة، مصدر سابق، ص٢٢٣.

" [محمد/١١]. أى : "لا ناصر لهم". ولما لم يكن ناصراً للكفار، سيكون ناصراً للمؤمنين فينصرهم وينصر عقولهم فى الاستدلال والآيات، وبيان المعانى لقلوبهم، وكشف البراهين لأسرارهم. وينصرهم على مخالفة النفس والهوى والشيطان. إن إبراهيم بن أدهم قال: "لرجل: أتحب أن تكون لله ولياً؟ فقال: نعم، فقال: لا ترغب فى شئ من الدنيا والآخرة؛ وفرغ نفسك لله تعالى، وأقبل بوجهك عليه لُيقبل عليك ويواليك".[١] وهذا تأكيد على أن الولى هو من توالت طاعاته من غير تخلل معصية. وقيل: من يلى الحق ويليه الحق برفع الحجب ليسمع لام الحق ويعيه. وقيل: من تولى الحق حفظه وحواسه على الدوام والتوالى، فلم يخلق فيه الخذلان الذى هو تمكنه من العصيان، ثم إنه تعالى يديم له توفيقه، الذى هو تمكينه وإقداره على فنون الطاعات وكرائم الإحسان.

فلا يكون ولياً لله إلا من آمن به وبما جاء به واتبعه باطناً وظاهراً، ومن ادعى محبته الله وولايته وهو لم يتبعه فليس من أولياء الله، بل من خالفه من أعداء الله وأولياء الشيطان.[٢] الولاية هى الإيمان والإيمان يجعل من معرفة الولى معرفة حقيقية وله قدم راسخ، فكثير من العوام لا يقرون الولى حتى يروا له آية أو كرامة، مع أن الولى كلما رسخت قدمه فى المعرفة قل ظهور الكرامة على يديه لأن الكرامة إنما هى معونة وتأييد وزيادة إيقان. والجبل الراسى لا يحتاج إلى عماد. الإيمان إذن هو أصل الولاية قال تعالى: "أَفَتَتَّخِذُونَهُ وذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي" [الكهف/٥٠]. قال يحيى بن معاذ: "لا يكون ولياً لله ولا يبلغ مقام الولاية من نظر إلى شئ دون الله، أو اعتمد سواه ولم يميز بين ما يعاديه ويواليه، وحال إقباله من حال إدباره". فمن تولاه الله بالحقيقة فهو الولى ومن ولاه فهو الوالى.[٣]

وابن قتيبة فى عيون الاخبار فى كتاب الزهد[٤] يصف الحوار الذى دار بين الله عز وجل وسيدنا موسى عليه السلام، قائلاً له: "وأعلم أنه لن يتزين العباد بزينة أبلغ فيما عندى من الزهد فى الدنيا، لأنها هى زينة الأبرار عندى؛ وإن آنق ما تزيّن به

(١) عبدالرازق القاشانى، لطائف الإعلام فى إشارات أهل الإلهام، جـ٢، تحقيق د/ سعيد عبدالفتاح، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٣، القاهرة، ٢٠٠٨م، ص٣٩٧.

(٢) ابن تيمية، الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، تحقيق مصطفى العدوى، مكتبة الإيمان، المنصورة، د.ت، ص٢١.

(٣) السلمى، التفسير، جـ٢، مصدر سابق، ص٤١٢.

(٤) ابن قتيبة، عيون الاخبار، جـ١، تحقيق، منذر محمد سعيد، المكتب الاسلامى، ط١، بيروت، ٢٠٠٨م، ص٢٩٢.

العباد في عيني عليهم منها: لباس يعرفون به من السكينة والخشوع، سيماهم النحول والسجود، أولئك أوليائي حقاً. فإذا لقيتهم فاخفض لهم جناحك، وذلّل لهم قلبك ولسانك. فيرى أبوالحسن الشاذلى إن أهم كرامة للولى هى كرامة الإيمان "وإنهما كرامتان جامعتان محيطتان: كرامة الإيمان بمزيد الإيقان على نعت الشهود والعيان، وكرامة العمل على السُنة والمتابعة، ومجانبة الدعاوى والمخادعة فمن أعطيهما ثم اشتاق إلى غيرهما فهو مفتر كذاب، أو ذو خطأ فى العلم والفهم، كمن أكرم بشهود الملك على نعت الرضى والكرامة، ثم جعل يشتاق إلى سياسة الدواب وخلع الرضا".(١)

علامة الولى اذن هى الإخلاص فى الإيمان، حتى إن طار ومشى على الماء دون عبادة ودون متابعة لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – فهو ولى للشيطان، وهذه العلامات ليست دليلاً على أنه ولى من أولياء الله، وعليه أن يصحح إيمانه، وليصحح فى الإيمان التوكل على الله، والإيمان هو أن لا يرجع فى السراء والضراء إلا إليه ولا يرضى بسواه عوضاً عنه، والتوكل هو الثقة بمضمون الرزق كثقتك بمعلومك. فإن الكرامة الحقيقية هى الأخلاق النبوية والعلوم اللدنية. فمن أنكر أولياء أهل زمانه وطلب منهم الدليل غير ما تقدم فقد ضل سواء السبيل، وبقى مربوطاً فى سجن البرهان والدليل.

فإن أولياء الله يجب عليهم الاعتصام بالكتاب والسُنة. وأنه ليس فيهم معصوم يسوغ له أو لغيره اتباع ما يقع فى قلبه من غير اعتبار بالكتاب والسُنة هو مما اتفق عليه أولياء الله عز وجل. فمن خالف فى هذا فليس من أولياء الله سبحانه الذين أمر الله باتباعهم، بل إما أن يكون جاهلاً، وإما أن يكون مفرطاً فى الجهل. وهذه المعانى والتعريفات للولاية تجعل الولى فى الإسلام هو القريب من الله بفضل الطاعات وورعه وفنائه فى محبة ربه ويعتبرون – التصوف السُنى – الولاية والنبوة مرتبتين مختلفتين مستقلتين، فإن الصوفية خاصة المسلمين، والأولياء خاصة الصوفية، فمعنى هذا أن الأولياء خاصة المسلمين، وأن الولاية أعلى مرتبة روحانية يصل إليها المسلم. لهذا نجد أبوالحسن البوشنجى (ت٣٤٧هـ) يقول: "ان الناس على ثلاث منازل أعلاهم الأولياء، وهم الذين باطنهم أفضل من ظاهرهم".(٢)

(١) ابن عجيبة، البحر المديد فى تفسير القرآن المجيد، جـ١، مصدر سابق، ص١٥٠.

(٢) ابن الملقن، طبقات الأولياء، تحقيق د/ نورالدين شريبة، مكتبة الخانجى، القاهرة، ١٩٧٣م، ص٢٥١.

نحن الآن أمام تصوران لمصطلح الولاية، الأول يجعل من الولاية استكمالاً للنبوة وامتداد لها وهذا التصور يتبناه غلاة الشيعة. والتصور الثانى للولاية يجعلها من دلائل النبوة.[١] فإن الولاية لا تحصل إلا لمن اتبع النبى فى قوله وأفعاله. فإن الولى رجل مشغول بالله يقضى حياته فى صحبة مولاه. رجل تجرد عن شهواته. لذا نجد عند أصحاب هذا التصور لمفهوم الولاية تطابق المفهوم اللغوى للولاية بمفهوم الشرع للولاية، فإن الولاية فى اللغة تعنى القرب.[٢] وفى الشرع تعنى المحبة والتناصر، أى القرب من الله بالطاعة والحصول على محبته والانتصار لأوامره ونواهيه.

أما أصحاب الرأى الأول يعزلون تماماً مفهوم الولاية فى اللغة عن مفهومها فى الشرع، بل تحول مفهوم الولاية إلى أغراض سياسية كما فعل غلاة الشيعة وقصروا مفهوم الولاية على الأئمة لأغراض سياسية، فهذا هشام بن الحكم الرافضى[٣] يزعم أن سيدنا علىّ وصى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وخليفته فى ذريته وهو خليفة الله فى أمته ويخلفه من بعده الأئمة المعصومين. ويقول القاضى عبدالجبار: "إن هشاماً هو من ابتدع القول بالعصمة".[٤] وبالتالى أصبحت الولاية ميراث نبوى انتقل من النبى إلى علىّ ثم إلى خلفه، قول شيعى وضع ليخدم غرضاً سياسياً ولو على حساب العقيدة السليمة. وبذلك تم أو تحولت الولاية من معناها القرآنى الذى هو النصرة والحماية اللتان يمنحهما الله عباده المؤمنين والمتقين والمقربين إطلاقاً، إلى نصرة وحماية طائفة خاصة لها شروط وعلامات. وبعد إن كانت حقاً مشاعاً لجميع المسلمين أصبحت مقصورة على نفر تنتقل إليهم انتقالاً وراثياً من النبى، ثم من علىّ إلى بنيه. بل زعمت روافض الشيعة: "أن الأئمة أفضل من الأنبياء والملائكة، وأنه لا يكون أحد أفضل من الأئمة أو (الأولياء)".[٥]

ويرتب غلاة الشيعة للنبوة مساراً وللولاية مساراً آخر، فإن الولاية لا تنقطع، فإذا كانت المعرفة النبوية التشريعية تنتهى بمحمد الرسول – صلى الله عليه وسلم – فإن المعرفة الإلهامية لازالت مستمرة، وتستمر هذه المعرفة عن طريق الولاية الظاهرة

(١) ابن تيمية، النبوات، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٥، ص١٥٧.

(٢) التهانوى، كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، تقديم: سحر سامى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٧م، ص٣٢٢.

(٣) الملطى، التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع، تحقيق الكوثرى، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، ١٩٩٧م، ص٢٥.

(٤) القاضى عبدالجبار، تثبيت دلائل النبوة، جـ٢، ص٥٢٨، دار المصطفى، القاهرة، د.ت.

(٥) الأشعرى، مقالات الإسلاميين، جـ١، مصدر سابق، ص١٢٠.

والمستورة إلى يوم الحشر، وأصحاب هذه الولاية هم الذين ينيرون الكتاب ويظهرونه، لدرجة أن هشام بن الحكم الرافضى يزعم: "أن الرسول – صلى الله عليه وسلم –! جائز عليه أن يعصى الله، وأن النبى قد عصى فى أخذ الفداء يوم بدر، فأما الأئمة فلا يجوز ذلك عليهم، لأن الرسول إذا عصى فالوحى يأتيه من قِبل الله، والأئمة لا يوحى إليهم، ولا تهبط الملائكة عليهم، ولا هم معصومون، فلا يجوز عليهم أن يسهوا، ولا يغلطوا، وإن جاز على الرسول العصيان".(١) وتأول على ذلك قوله تعالى: "لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ ومَا تَأَخَّرَ" [الفتح/٢]، وفرق فى ذلك بين النبى والولى أو الإمام: بأن النبى إذا عصى أتاه الوحى بالتنبيه على خطاياه، والإمام لا ينزل عليه الوحى فيجب أن يكون معصوماً عن المعصية.

المطلب الثانى : العبادة هى طريق الولى إلى الله

فإن الولاية الحقيقية كما يقول حبيب العجمى: "الولاية من كثرة العبادة".(٢) لقوله تعالى: "وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ" [الذاريات/٥٦]. وقال: "إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا" [مريم/٩٣]، فكيف يجوز أن يحل فيما ألزمه وصف النقص وهو العبودية، فيكون مستعبداً معبوداً؟. فلقد ثبت أن الحق سبحانه وتعالى ألزم فى كتابه وصف العبودية للخلق أجمع. لأن المؤمن يتولى الله بالعبادة، والطاعة فيتولاه بالهداية، وتوفيق الطاعة، وهم الذين يتقربون إلى الله تارة بأداء ما أفترض الله عليهم، وأخرى لا يزالون يتقربون إليه بالنوافل حتى يحبهم. وبالتالى فإن أهم ميزة يختص بها الولى من وجهة نظر الامام القشيرى.(٣) "إن الله وفقهم للقيام بأداب العبودية، وأشهد مجارى أحكام الربوبية. فقاموا بأداء ما عليهم من واجبات تكليف، وتحققوا بما منه سبحانه لهم من التقليب والتصريف". فإن الطاعة لله هى الولاية من الله تعالى كما قال الله تعالى: "إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ ورَسُولُهُ والَّذِينَ آمَنُوا" [المائدة/٥٥]. ولا تتم الولاية من الله تعالى إلا بالتبرى ممن سواه.(٤) فإن الأولياء لا يدخلون فى الجدال ولا فى القيل والقال "إذ ليس للأولياء سؤال وإنما هو الذبول

(١) نفس المصدر السابق، ص١٢١، وكذلك البغدادى، فى الفَرق بين الفِرق، ص٧٥.

(٢) العطار، تذكرة الأولياء، جـ١، تحقيق وترجمة د/ منال اليمنى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٦م، ص٨٧.

(٣) القشيرى، الرسالة، مصدر سابق، ص٣.

(٤) التسترى، تفسير القرآن العظيم، تحقيق د/ طه عبدالرؤوف سعد، دار الحرم للتراث، ط١، القاهرة، ٢٠٠٤م، ص٢٣.

والخمول، فهو مشهور غير مفتون بحب الرياسة والشهرة، فأفعاله كلها خالصة من الرياء والنفاق قائمة على الطاعة والموافقة"، فإن"نهايات الأولياء بدايات الأنبياء".[١]

إذن من يدعى الولاية بدون إيمان وإسقاط سافر للتكاليف الشرعية، فهو إما جاهل وإما شديد الجهل، فنجد ابن سينا يعرف الولى قائلاً: "والعارف ربما ذهل فيما يصار به إليه، فغفل عن كل شئ، فهو فى حكم من لا يكلف. وكيف، والتكليف لمن يعقل التكليف حال ما يعقله، ولمن اجترح بخطيئته إن لم يعقل التكليف؟".[٢]

ولا أكون متحاملاً إذا قلت أن هذا النص يصل إلى جعل التكليف باطل لأنه يشغل القلب بتكاليف تلك الأعمال. واشتغال القلب بغير الله، يمنعه عن الاستغراق فى معرفة الله ومحبته، وكل ما كان مانعاً عن المحبة والمعرفة، كان تركه من أوجب الواجبات. والأخطر من ذلك القول بأن جملة احكام الأفعال فى الفعل والترك معلومة ومعروفة بالعقل ولا دليل لتكليف أو شرع فى تقرير ذلك. أى أن الأفعال إما أن يكون حسنها معلوماً، أو يكون قبحها معلوماً، أو لا نعلم لا حسنها ولا قبحها. فإن كان حسنها معلوماً: علمناه، ولا حاجة بنا فى ذلك إلى تعريف الشرع، وإن كان قبحها معلوماً تركناه.[٣] وانكار التكاليف وألفاظ ومصطلحات العبد الربانى وخلافة لها أصول قديمة، فنجد الثنوية المزدكية[٤] ترى أن الإنسان لكى يعود ربانياً، لابد أن تكون بين يديه أربع قوى: قوى التمييز، والفهم، والحفظ، والسرور. فمن ملكها واجتمعت فيه، انفتح له السر الأكبر، وارتفعت عنه التكاليف، فأحلت له الدنيا بما فيها من متاع.[٥] وهذه الأفكار نقلت إلى أرض الإسلام فى عهد الراشدين، وتبنى هذه الأفكار – خاصة أفكار المجوس الثنوية– الشيعة الباطنية من قرامطة وحشاشين.[٦] وأصبح هناك تيار داخل الإسلام يحاول دائماً أن يشوه صورة الولى الطائع العابد الذى يمثل التصوف السُنى الذى يقوم وينشأ من القرآن والسُنة، وبهما صار وتطور. فإن التصوف السُنى فيمثل الإسلام، وهو تفسير ذوقى للإسلام ولمصدريه الكبيران: القرآن والسُنة. وأما التصوف الفلسفى الذى أخذ من كل المذاهب ومزجها وخلطها. فهو عنصر دخيل لا يمُت للإسلام ولا

(١) القشيرى، الرسالة، مصدر سابق، ص٢٠٢.

(٢) ابن سينا، الإشارات والتنبيهات مع شرح نصير الدين الطوسى، تحقيق، د/ سليمان دنيا، دار المعارف، ط٢، القسم الرابع، القاهرة، ١٩٦٨م، ص١٠٩.

(٣) فخرالدين الرازى، الأربعين فى أصول الدين، تقديم د/ أحمد حجازى السقا، دار الجيل، ط١، جـ٢، بيروت، ٢٠٠٤م، ص٣١٨.

(٤) نسبه إلى مزدك، قتل ٥٢٣م.

(٥) ابن النديم، الفهرست، جـ١، تحقيق، جوستاف فليجل، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٦م، ص٣٤٢.

(٦) د/ على سامى النشار، نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام، جـ١، دار المعارف، ط٤، الاسكندرية، ١٩٦٦م، ص٦٣٢.

للمسلمين بأى صلة. لذلك فإننى أرفض مقولة الدكتور أبو العلا عفيفى[١] الذى يقول فيها: "أن الصوفية يدينون للشيعة بمعظم ما قالوه فى الولاية والأولياء". وكان من باب أولى أن يقول بأن التصوف السُنى وقف أمام غنوص الشرق سواء أكان فارسياً أم هندياً، كما وقف أمام غنوص الغرب – الأفلاطونية المحدثة – موقف العداوة والبغضاء، يجالدها أشد مجالدة وأعنف جهاد.

فلا تقترن الولاية فى الإسلام السُنى بمعنى من معانى الألوهية، فلا يدعى الولى أن فيه جانباً إلهياً على سبيل الفيض أو الحلول أو ما شاكلهما، وإن كان يدعى أو يُدعى له، أن الله أودع فيه قوة أو صفة خارقة تعصمه – بدناً وروحاً – من أن يأتى بمعصية. وبذلك تنتفى صفة العبودية لله ويصبح هذا العارف والمعروف واحد. وهذا المفهوم كان بداية لطبقة انتسبت إلى التصوف وتكلمت فى الحلول متأثرين بما نقله لنا الشيعة من المجوس الثنوية واليهود ورهبان النصارى. فقالوا: "إن الله تعالى اصطفى نسماً حل فيها بمعنى الربوبية فأزال عنها معانى البرية".[٢] فمن قال به أو تحقق فيه أو ظن أن التوحيد بدا له بما أشار من هذه المقالة فهو كافر حقاً. وإنما أخطأت الحلولية – إن صح عندهم مقالتهم – لأنهم لم يميزوا بين القدرة التى صفة القادر وبين الشواهد التى دلت على قدرة القادر وصنعة الصانع، فضاعت عقولهم وافترقوا فى قولهم، فمنهم من يقول بالأنوار، ومنهم من يقول بالنظر إلى الشواهد المستحسنات، ومنهم من قال أنه حال فى المستحسنات فقط، ومنهم من يقول هذا على الدوام، ومنهم من يقول وقتاً دون وقت، وكل هذا كفر وإفك وضلال.

ما نستخلصه من هذا المطلب أن أول شرط من شروط الولاية هو الاتفاق مع الشرع والعقيدة السليمة فإن الولى، كما يقول محمد بن أبى الورد: "من يوالى أولياء الله، ويعادى أعداءه".[٣] وهذا ما يدفعنى إلى استكمال شروط الولاية.

(١) د/ أبو العلا عفيفى، التصوف الثورة الروحية فى الإسلام، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٣م، ص٢٩٥.

(٢) السلمى، رسالة فى غلطات الصوفية، مصدر سابق، ص٤٧٦.

(٣) القشيرى، الرسالة، مصدر سابق، ص٤٤٢.

المبحث الثانى : شروط صحة الولاية

المطلب الأول : الولى معصوم أم محفوظ

هناك من يتحدث على أن أول شرط للولاية هو العصمة وهذا قول غلاة الشيعة وبعض أقطاب الصوفية، والبعض الآخر يرى أن الولى هو إنسان كسائر الناس فيه القدرة على أن يعصى وأن يطيع، ولكن الله يحفظه من المعصية بأن يبعث فى قلبه نوراً يهديه ويصرفه عنها. إذن هو محفوظ وليس معصوم. وأصبح من شروط الولى أن يكون محفوظاً، كما أن من شرط النبى أن يكون معصوماً، فكل من كان للشرع عليه اعتراض فهو مغرور مخدوع.(١)

فيرى الشيعة بعامة، وغلاة الشيعة منهم بخاصة، إن مرتبة الإمامة أو الولاية لا يستحقها إلا من يعصمه الله من الخطأ والانفعالات النفسية المختلفة، والحاصلون على مطلق العدالة الإلهية، فإن الولى أو الإمام فى نظرهم معصوم من الخطأ جملةً وتفصيلاً، والعصمة عند غلاة الشيعة شرط فى الولى أو الإمام. وتعنى العصمة فى كلام العرب "المنع" مصداقاً لقوله تعالى: "قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ المَاءِ قَالَ لا عَاصِمَ اليَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وحَالَ بَيْنَهُمَا المَوْجُ فَكَانَ مِنَ المُغْرَقِينَ" [هود/٤٣]، أى:" يمنعنى" أى: "لا شئ يمنع من العذاب إلا رحمة الله"، وتعنى العصمة أيضاً الحفظ والامتناع عن فعل المعصية. فالعصمة إذاً قوة تمنع صاحبها عن الوقوع فى المعصية والخطأ بحيث لا يترك واجباً ولا يفعل محرماً مع قدرته على الترك والفعل، ويكون المعصوم قد بلغ من التقوى الحد الذى لا تتغلب معه عليه الشهوات والأهواء، وكذلك قد بلغ من العلم بالشريعة وأحكامها مرتبة لا يخطئ معها أبداً. فإن روافض الشيعة ترى: "إن الإمام أو الولى يعلم كل ما كان وكل ما يكون، ولا يخرج شئ عن علمه من أمر الدين ولا من أمر الدنيا ... وزعم هؤلاء أن الإمام يعلم كل أمور الأحكام والشريعة ... لأنه القيم بالشرائع والحافظ لها".(٢)

فإن الهدف السيئ عند غلاة الشيعة ليس تشويه صورة الولى فى القرآن والسُنة، ولا جعل النبوة تفتقد الخصوصية الإلهية، وإنما الغرض الحقيقى عندهم هو القضاء على مبدأ الإجماع ورفض مبدأ عصمة الأمة، فلا معصوم عندهم إلا وليهم أو

(١) جامى، نفحات الأنس، مصدر سابق، ص١١.

(٢) الأشعرى، مقالات الإسلاميين، جـ١، مصدر سابق، ص١٢٢.

إمامهم، فهم بذلك يخالفون الرسول – صلى الله عليه وسلم – ويخالفون جمهور المسلمين المتفقون على أن من خالف الإجماع ضل، فإن الأئمة لا تجتمع على ضلالة، كما أصبح الإجماع عند اهل السُنة أصلاً من أصول الأحكام الشرعية الأربعة: الكتاب والسُنة والإجماع والقياس.

وأما غالبية أقطاب الصوفية ترى أن الأولياء ليسوا معصومين لأن العصمة ليست شرطاً لهم، ونفى الولاية مرتبط بالردة لا بالمعصية، وهذا مذهب محمد بن على الترمذى والجنيد وأبى الحسن النورى والحارث المحاسبى. أما أهل المعاملة مثل سهل بن عبدالله التسترى وأبى سليمان الدارانى وحمدون القصار، فمذهبهم أن شرط الولاية المداومة.(١) وهؤلاء الصوفية اشترطوا أن يكون الولى محفوظاً وليس معصوماً، ويفسر ذلك ابن تيمية.(٢) فيرى أنه لا يجوز أن يكون من شرط الولاية أن يكون الولى معصوماً لا يغلط ولا يخطئ، بل يجوز أن يخفى عليه بعض علم الشريعة، ويجوز أن يشتبه عليه بعض أمور الدين، حتى يحسب بعض الأمور مما أمر الله به ومما نهى الله عنه.

ويجوز أن يظن فى بعض الخوارق أنها من كرامات أولياء الله تعالى، وتكون من الشيطان لَّبسها عليه لنقص درجته ولا يعرف أنها من الشيطان، وإن لم يخرج بذلك عن ولاية الله تعالى، فإن الله سبحانه وتعالى تجاوز لهذه الأمة عن الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه، فقال تعالى: "رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا ولا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَذِينَ مِن قَبْلِنَا..." [البقرة/٢٨٦].

هنا التأكيد على أن الله سبحانه وتعالى جعل هذه الأمة خيار الأمم، وجعل هذه الطائفة خيار هذه الأمة، فهم خيار الخيار. وكما أن هذه الأمة شهداء على الأمم فى القيامة فهذه الطائفة هم المدار وهم الأولياء(٣)، وبهم يحفظ الله جميع الأمة. وكل من قبلته قلوبهم فهو المقبول، ومن ردته قلوبهم فهو المردود. فالحكم الصادق لفراستهم، والصحيح حكمهم، والصائب نظرهم، عصم جميع الأمة من الاجتماع على الخطأ، وعصم هذه الطائفة من الخطأ فى النظر والحكم والقبول والرد، ثم إن بناء أمرهم مستند إلى سنة الرسول – صلى الله عليه وسلم –، فكل من لا يكون له اقتداء بالرسول

(١) الهجويرى، كشف المحجوب، جـ٢، مصدر سابق، ص٤٦٠.

(٢) ابن تيمية، الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، مصدر سابق، ص٧٤.

(٣) ابن عجيبة، البحر المديد فى تفسير القرآن المجيد، جـ١، مصدر سابق، ص١٧٥.

فهو عندهم مردود، وصاحبه كلا شئ. فإن سيماهم هو الانقياد للأوامر بحسب الطاقة، والرضا بالموارد، والكون فى كل وقت بحكمه.(١)

ولهذا جُعل الأولياء فى الأرض خلفاء الرسل والأنبياء عليهم السلام، فمن ترك حرماتهم حُرم متابعة حرمة الرسل صلوات الله عليهم أجمعين. فإذا استصلح الله تعالى عبداً لخدمته رزقه حفظ حرمات النبى – صلى الله عليه وسلم – ولن يصل إلى حفظ حرمته إلا بحفظ حرمة خلفائه من أولياء الأمة والعلماء والتأدب بأدابهم والتخلق بأخلاقهم، فتلحقه بركات نظرهم وشفعتهم، فيرتقى بذلك إلى معرفة حرمات النبى ثم يصل بذلك إلى حسن الرعاية لأوقاته فى القيام بخدمة سيده. قال ذو النون: "إن الله تعالى أودع فى كل وعاء من أوعية أوليائه سراً من أسراره، فمن لم يشاهد ذلك السر فهو لِعَمَى قلبه، ومن شاهده ولم يعظمه فهو لقلة دينه".(٢)

من هذا النص تظهر لنا حقيقتين الأولى: هو الإيحاء أو الإلهام، والثانى: هو الولى معروف غير مفتون. فإن الإيحاء أو الإلهام سراً بين الولى وربه، يقول ابن عجيبة فى تفسيره(٣): "أن الوحى على أربعة أقسام: وحى منام، ووحى إلهام، ووحى أحكام، ووحى إعلام، وشاركت الأولياء الأنبياء فى ثلاثة: الإلهام والمنام والاعلام، إن كان بغير الملك، ومعنى وحى إعلام: هو إطلاع الله النبى على أمور مغيبة، فإن كان بواسطة الملك، فهو مختص بالأنبياء، كما اختصت بوحى الأحكام، وأما إن كان بالإلهام أو بالمنام أو بالفهم عن الله، فيكون أيضاً للأولياء، إذ الروح إذا تصفت وتطهرت من دنس الحس أطلعها الله على غيبه فى الجملة، وأما التفصيل فلا يعلمه إلا علام الغيوب".

فإن الله تبارك وتعالى جعل أقسام كلامه مع عباده الصالحين ثلاثة:(٤) وحياً: بلا واسطة. كما أخبر عن حال النبى – صلى الله عليه وسلم – بقوله: " فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى " [النجم/١٠]. وكلاماً: من وراء حجاب. كما أخبر عن حال موسى عليه السلام. بقوله تعالى: "وكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً" [النساء/١٦٤]. والذى يدل على أنه كلمه من وراء حجاب قوله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام "قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ"

(١) السلمى، مسألة درجات الصادقين فى التصوف، تصحيح كنث هنرى كامب، مصدر سابق، ص٨٠.

(٢) السلمى، أدب مجالسة المشايخ وحفظ حرماتهم، مصدر سابق، ص١٠٨.

(٣) ابن عجيبة، البحر المديد فى تفسير القرآن المجيد، جـ١، مصدر سابق، ص٣٥٣.

(٤) أبوبكر الرازى (ت٦٥٤هـ)، منارات السائرين ومقامات الطائرين، تحقيق وتقديم د/ سعيد عبدالفتاح، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٩م، ص١٠٤.

[الأعراف/١٤٣]. أى إرفع الحجاب عنى لأنظر إليك. وإرسال الرسول: وهو جبريل عليه السلام. وغيره من الملائكة، يرسلهم إلى الرسل عليهم السلام. كما قال تعالى: "الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ جَاعِلِ المَلائِكَةِ رُسُلاً" [فاطر/١].

فإن الولى إذا صح له مراعاة ظاهره ومراقبة باطنه يبدو له بعد ذلك حال المكاشفة أو الإلهام. وهذه الحال عند الصوفية لها مفهومين الأول عند العراقيين بمفهوم أن يُكشف له – الولى – عن المغيبات فيحكم فيها وعليها ويكشف له عن أحوال الخلق ولا يغيب عنه منهم شئ. والمفهوم الثانى عند الخراسانيين بمفهوم أن يكشف له عن عيوب النفس وخيانة السر فلا يدخل عليه حال إلا وهو يعرف صحته وسقمه ولا يغفل عن ظاهره وباطنه.(١)

وهنا نؤكد على أن السر هو الوحى ووحى الأولياء: وهو بالإلهام. كما قال تعالى: "وإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا" [المائدة/١١١]. فلو لم يكن إيمان الحواريين بالإلهام الربانى إلى قلوبهم، لكفروا. كما أخبر الله تعالى عن حالهم وحال غيرهم من بنى اسرائيل بقوله تعالى: "قَالَ الحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وكَفَرَت طَّائِفَةٌ" [الصف/١٤]. يعنى فآمنت طائفة من الحواريين من بنى اسرائيل بالإلهام الربانى، وكفرت طائفة منهم إذ لم يلهموا به. فالوحى هنا(٢) ورد بمعنى الإعلام الخفى لمن اصطفاه من عباده، بأمر ألقاه الله وبلغه إياه. قال تعالى: "فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ" [إبراهيم/١٣]. ونلاحظ أن الشرع استعمل كلمة الوحى فى غالب الاستعمال لتدل على الإعلام الخفى والسريع والإلهام، حتى جعل القول الجامع فى معنى الوحى اللغوى أنه الإعلام الخفى السريع الخاص بمن يوجه إليه بحيث يخفى على غيره.(٣)

فإن الله تعالى جعل الرؤيا وحيه إلى أوليائه والمسلمين من عباده وجعلها جزءاً من أجزاء النبوة كما ذكر الترمذى فى مسنده عن أبى هريرة قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إن الرسالة والنبوة قد انقطعت فلا رسول بعدى ولا نبى". "قال ففزع الناس. فقال صلى الله عليه وسلم: لكن المبشرات! قالوا: يا رسول الله، وما

(١) السلمى، كتاب سلوك العارفين، تصحيح سليمان ابراهيم آتش، ضمن كتاب آثار أبوعبدالرحمن سُلمى، مصدر سابق، ص٥٧٧.

(٢) د/ راجح عبدالحميد كردى، نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة، مكتبة المؤيد، ط١، الرياض، ١٩٩٢م، ص٧٠٧.

(٣) انظر الزمخشرى، أساس البلاغة، دار الشعب، القاهرة، ١٩٦٠م، ص١٠١، وكذلك الفيروز أبادى، القاموس المحيط، جـ٤، المطبعة الأميرية، ط٣، القاهرة، ١٩٣٣م، ص٣٩٩.

المبشرات؟ قال: رؤيا المسلم يراها الرجل أو تُرى له، وجزء من أجزاء النبوة".[١] وهذا المفهوم للوحى عكس ما قال به ابن سينا فى رسالة إثبات النبوات[٢]، فيرى: "أن الناطق أما بملكة أو بغير ملكة والأول أفضل. وذو الملكة إما خارج إلى الفعل التام أو غير خارج والأول أفضل. والخارج إما بغير واسطة أو بواسطة والأول أفضل. وهو المسمى بالنبى وإليه انتهى التفاضل فى الصور المادية ... والوحى هو هذه الإفاضة والملك هو هذه القوة المقبولة المفيضة كأنها عليه إفاضة متصلة بإفاضة العقل الكلى مجراة عنه لا لذاته بل العرض وهو المرئى القابل".

ومعنى هذا أن النفس الإنسانية بتجردها عن الصور المادية وتمسكها بطريق العقل وهو طريق الحكمة تصفو وتتلقى مباشرة من العقل الكلى، وهذا بالطبع مخالف لمفهوم الوحى سواء للأنبياء أو بالإلهام للأولياء، كما أن الأنبياء عليهم السلام لهم رسالة بالواسطة والتلقف معاً وأنها بعيدة من الاغترارات، والاغترارات وقعت فى أحوال الأولياء لا فى أحوال الأنبياء، والولاية والصديقية إنما تمامها بأنوار النبوة، ولو ألقى على الخضر ذرة مما شاهد موسى – عليه السلام – من سماع وكلام أو رؤية النور انمحق الخضر– عليه السلام – حتى لا يبقى منه شئ، وحجب علم الخضر عن موسى تهذيباً لا تعليماً.[٣] والولى هنا بتعبير السُلمى يكون فى مقام التمكين. وهذا المقام فوق الطمأنينية.[٤] وهو الإشارة إلى غاية الاستقرار.

وصاحب هذا المقام قادر على التصرف فى الفعل والترك. ويسمى مكانة أيضاً، قال الله تعالى: "قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ" [الأنعام/١٣٥]. والتمكين هو تجاوز درجات الأوصاف والحظوظ والإرادات، فالوصف والإرادة من الله وحكمهم حكم الحق فيه. وبذلك يصل ويبلغ محل الأمن ومواقف الأمناء وهم فى الأولياء بمنزلة الرسل فى الأنبياء، وهم أصل الأشراف المأذونون لهم فى الإخبار.[٥] فليس كل ولى مسموح له بالإخبار عما يشاهده من الغيوب، فأعلى درجات المشاهدة أن

(١) ابن عربى، رسالة المبشرات، ضمن كتاب رسائل إبن عربى، جـ١، تحقيق د/ سعيد عبدالفتاح، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط١، القاهرة، ٢٠١٤م، ص٢١٣.

(٢) ابن سينا، رسالة فى اثبات النبوات ضمن كتاب قراءات فى الفلسفة، د/ على سامى النشار، د/ محمد على أبوريان، الدار القومية، ط١، القاهرة، ١٩٦٧م، ص٥٩٤.

(٣) السُلمى، رسالة فى غلطات الصوفية، مصدر سابق، ص٤٧٥.

(٤) ابن القيم، مدارج السالكين، المجلد الثانى، دار النقوى، القاهرة، د.ت، ص٣٧٧.

(٥) السُلمى، كتاب سلوك العارفين، تصحيح سليمان ابراهيم آتش، ضمن كتاب مجموعة آثار أبوعبدالرحمن سُلمى، مصدر سابق، ص٥٧٧.

يشاهد فعل الله تعالى به وفعله فى الخلق وما يرد ويصدر وبذلك يدخل الولى فى محل الأمانة، فهو مستأمن على ما يراه ويشهده، وفى النهاية الأمناء من الأولياء. يقول أبوعثمان سعيد بن سلام (ت ٣٧٣هـ) "لا تصحب إلا أميناً أو مُعيناً؛ فإن الأمين يحملك على الصدق، والمعين على الطاعة".(١)

إذن الكشف أو المشاهدة أو الالهام عند الأولياء درجات فمنهم من يكشف له عن حاله، ومنهم من يكشف له عن مراده، ومنهم من يُكشف له عن عموم الأحوال ولا يؤذن له فى الاخبار عنها، ومنهم من يُكشف له عن مراد الحق فيهم، ومنهم من يكون مكشوفاً مأذوناً له فى الإخبار عما كشف له من المراتب التى خص هو بها وخص بها سائر الأولياء.

وهذا ما جعلنى أستخلص من ذلك أن للأولياء إلهاماً ووحياً ولكنه يختلف عن الوحى والإلهام للأنبياء، فحتى أعلى درجة يصل إليها الولى فى الكشف وهى للأمناء فهو حسب تعبير السُلمى شبيه بالرسل وليس مثل الرسل والأنبياء، فإن الولاية خلف النبوة، فمن علامات الولاية الحكمة التى تتلخص فى طول الصمت، والكلام على قدر الحاجة. فيقول إبراهيم القصار (ت٣٢٦هـ): "الأولياء مرتبطون بالكرامات والدرجات؛ والأنبياء مكشوف لهم عن حقائق، فالكرامات والدرجات – عندهم – وحشة".(٢)

وبذلك نحدد الطبقة والفئة التى غلطت فى النبوة والولاية وزعمت أن الولاية أعلى وأتم من النبوة، وذلك لأنهم نظروا إلى قصد موسى للخضر صلوات الله عليهما فى قوله تعالى: "فَوَجَدَا عَبْداً مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً (*) قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً (*) قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً" [الكهف/٦٥ :٦٧] فتوهمت هذه الطائفة أن حال الولاية أفضل من حال النبوة لرجوع موسى صلوات الله عليه إليه، ولم يعلموا أن الله سبحانه: "واللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ واللَّهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ" [البقرة/١٠٥]. خص الأنبياء بالمعجزات على الدوام ثم خص مريم بقوله: "وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ" [مريم/٢٥]، ولم يكن لأحد من الأنبياء، ولم تكن نبية ولا هى أفضل من نبى. وآصف بن برخيا كان عنده علم من الكتاب وأتى

(١) السُلمى، طبقات الصوفية، دار الكتاب العربى، ط١، القاهرة، ١٩٥٣م، ص٤٨٢.
(٢) نفس المصدر السابق، ص٣٢١.

بعرش بلقيس قبل أن يرتد إليه طرفه ولم يكن هذا نبى ولا يدل على أنه أفضل من سيدنا سليمان بهذا.(١)

فإن الذى اختص به النبى من هذا دون الولى الوحى بالتشريع(٢) فلا يشرع إلا النبى ولا يشرع إلا رسول خاصة فيحلل ويحرم، ويبيح ويأتى بجميع ضروب الوحى والأولياء ليس لهم من هذا الأمر إلا الإخبار بصحة ما جاء به هذا الرسول وتعيينه حتى يكون هذا التابع على بصيرة فيما تعبده به ربه على لسان هذا الرسول إذ كان هذا الولى لم يدرك زمانه حتى يسمع منه كما يسمع أصحابه فصار هذا الولى بهذا النوع من الخطاب بمنزلة الصاحب الذى سمع من لفظ رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ما شرع ولذلك جاء فى القرآن "أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي" [يوسف /١٠٨].فيقال: يفتح للأنبياء المكاشفات وللأولياء المعاينات وللصالحين الطاعات، وللعامة الهداية، فبينات الأنبياء وحى ويقين وبينات الأولياء الفراسة الصادقة.(٣)

ويلخص النسفى(٤) ذلك، فيقول: "الولى هو العارف بالله تعالى وصفاته بحسب ما يمكن المواظب على الطاعات المجتنب عن المعاصى المعرض عن الانهماك فى اللذات والشهوات وكرامته ظهور أمر خارق للعادة من قبله غير مقارن لدعوى النبوة، فما لا يكون مقروناً بالإيمان والعمل الصالح يكون استدراجاً وما يكون مقروناً بدعوى النبوة يكون معجزة".

المطلب الثانى: الولى بين الخوف والرجاء

وهذا ما ينقلنى إلى السر الآخر أو الشرط الآخر لصحة الولاية، وهو هل يجوز أن يعلم الولى أنه ولى، أم لا؟ والسؤال الآخر هو لماذا أصلاً اختلف مشايخ الصوفية حول معرفة الولى أنه ولى، أم لا؟ وهل لهذا الاختلاف أصل؟

اعتقد أنه ربما نشأ الخلاف حول هذا الشرط نتيجة أن الأولياء ليسوا جميعاً مطالبين بإظهار كل ما يكشف لهم من قبل الله سبحانه وتعالى، فإن الأولياء فى معاملة الحق على أقسام ثلاثة(٥): قسم يليق بهم الإخفاء والإسرار، وهم طالبو الإخلاص من

(١) عبدالله المكى، روض الرياحين فى حكايات الصالحين، مكتبة زهران، القاهرة، د.ت، ص٣٣.

(٢) ابن عربى، رسالة المبشرات، ضمن كتاب رسائل ابن عربى، جـ١، مصدر سابق، ص٢٣٢.

(٣) السلمى، التفسير، جـ٢، مصدر سابق، ص٢٠٢.

(٤) النسفى، العقائد النسفية، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، د.ت، ص١٣٩.

(٥) ابن عجيبة، البحر المديد فى تفسير القرآن، جـ١، مصدر سابق، ص٣٠٥.

المريدين السائرين. وقسم يليق بهم الإظهار وهم أصل الاقتداء من العلماء المخلصين. وقسم لا يقفون مع ظهور ولا خفاء، بل مع ما يبرز فى الوقت، وهم العارفون الكاملون. ولذلك قال الشيخ أبوالعباس رضى الله عنه: "من أحب الظهور فهو عبدالظهور، ومن أحب الخفاء فهو عبد الخفاء، ومن كان عبدالله فسواء عليه أظهره أم أخفاه".

وهذا ما أوضحه أبويزيد البسطامى من أن حظوظ الأولياء مع تباينها من أربعة أسماء، وقيام كل فريق منهم باسم؛ وهو: الأول، والآخر، والظاهر، والباطن، فمتى فنى عنها بعد ملابستها فهو الكامل التام، فمن كان حظه من اسمه تعالى الظاهر لاحظ عجائب قدرته ومن كان حظه من اسمه الباطن لاحظ ما جرى فى السرائر من أنواره. ومن كان حظه من اسمه الأول كان شغله بما سبق، ومن كان حظه من اسمه الآخر كان مرتبطاً بما يستقبله، وكل كشف على قدر طاقته إلا من تولاه بالحق، سبحانه ببره، وقام عنه بنفسه.(١)

اعتبر أن ذلك هو أصل الاختلاف حول معرفة الولى أنه ولى، أم لا؟ والاختلافات حول الإجابة عن هذا السؤال هى أيضاً لا تخرج عن ثلاث مواقف، فهناك من يعارض بشدة معرفة الولى أنه ولى، وهناك من يوافق ولا مانع من معرفة الولى أنه ولى، وهناك من يقف موقفاً وسطاً، فلا يعنيه إلا الطاعة والإخلاص فى العبادة، ويعرف من يعرف، فهو مشهور ليس مفتون. يقول أبوعثمان المغربى: "الولى قد يكون مشهوراً، ولكن لا يكون مفتوناً".(٢) وفى هذه الحالة لا يكون للأولياء سؤال؛ إنما هو الذبول والخمول. وأصحاب هذا الموقف الإمام أبوعلى الدقاق وهو نفس موقف الإمام القشيرى(٣)، فأكدوا على أنه يجوز أحياناً وأحياناً أخرى لا يجوز، "فليس ذلك بواجب فى جميع الأولياء حتى يكون كل ولى يعلم أنه ولى واجباً، ولكن يجوز أن يعلم بعضهم كما يجوز أن لا يعلمه بعضهم. فإذا علم بعضهم أنه ولى كانت معرفته تلك كرامة له انفرد بها. وليس كل كرامة لولى يجب أن تكون تلك بعينيها لجميع الأولياء. بل لو لم يكن للولى كرامة ظاهرة عليه فى الدنيا لم يقدح عدمها فى كونه ولياً. بخلاف الأنبياء

(١) القشيرى، الرسالة، مصدر سابق،، ص٢٢٥، وكذلك السلمى، التفسير، جـ٢، مصدر سابق، ص٣٠٦.
(٢) نفس المصدر السابق، ص٢٢٤.
(٣) نفس المصدر السابق، ص٢٩٧.

فإنه يجب أن تكون لهم معجزات؛ لأن النبى مبعوث إلى الخلق فالناس فى حاجة إلى معرفة صدقه؛ ولا يعرف إلا بالمعجزة".

ومن قال أنه لا يجوز ذلك، فيدلل على ذلك، بأن الولى يلاحظ نفسه دائماً بعين الصغير، وإن ظهر عليه شئ من الكرامات خاف أن يكون مكراً، وهو يستشعر الخوف دائماً أبداً؛ لخوف سقوطه عما هو فيه، وأن تكون عاقبته بخلاف حاله، وهؤلاء يجعلون من شرط الولاية: وفاء المآل. وهناك الكثير من مشايخ الصوفية على هذا المفهوم، فهذا سهل التسترى[١] فى تفسيره لا يريد أن يظهر على لسانه أنه ولى، فيقول: "وإنى لأعرف رجلاً من الأولياء رأى فى الدنيا رمانة كأكبر ما كان بين يدى رجل على شاطئ البحر، فقال له الولى؛ ما هذا بين يديك؟ فقال: رمانة رأيتها فى الجنة فأشتهيتها، فأتانى الله بها، فلما وضعها بين يدى ندمت على استعجالى ذلك فى الدنيا، قال له ذلك الرجل: أفآكل منها؟ قال له الرجل: إن قدرت أن تأكل منها فكل، فضرب بيده إليها فأكل أكثرها، فلما رآه يأكل منها أعظمه ذلك، فقال أبشر بالجنة فإنى لم أعرف منزلتك قبل أكلك منها، وذلك أنه لا يأكل من طعام الجنة فى الدنيا إلا من هو من أهل الجنة. قال أبوبكر الوراق: فقلت لسهل هل أخبرك الآكل من تلك الرمانة ما كان طعمها؟ فقال: نعم، فيها طعم يجمع طعوم الفواكه، ويزيد على ذلك فى طعمه لين وبرد ليس هو فى شئ من طعوم الدنيا. قال أبوبكر: فلم أشك ولا من سمع هذه الحكاية من سهل إلا أنه هو صاحب الرمانة والأكل منها. فيقول سهل التسترى (ت ٢٨٣هـ): "يلزم الصوفى حفظ سره".[٢]

وفى هذا المقام يذكر القشيرى[٣] رواية أيضاً تؤكد على أن الولى لا يجوز أن يعرف أنه ولى، فيقول: "كان أبا بكر الصيدلانى ينقش اسم أبى بكر الطمستانى على مقبرته بالحيرة، فكان يسرق هذا اللوح دون غيره، فبرر ذلك أبا على الدقاق: أن هذا الشيخ آثر الخفاء فى الدنيا، وأنت تريد أن تشهر قبره باللوح الذى تصلحه فيه، وإن الحق سبحانه يأبى إلا إخفاء قبره، كما آثر هو ستر نفسه.

إذن حجة الرافض هنا أنه يعجب بنفسه حين يعرف أنه ولى، وشرط الولاية حفظ الحق، والمحفوظ من الآفة لا يجوز عليه ذلك. "فإن ادعيتها لنفسك سلبتك

(١) التسترى، تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، ص٩١.

(٢) السلمى، طبقات الصوفية، مصدر سابق، ص٢٠٨.

(٣) القشيرى، الرسالة، مصدر سابق، ص٢٢٤.

الولاية"[١] كما أن معرفة ذلك تزيل عنه خوف العاقبة، وزوال خوف العاقبة يوجب الأمن، وفى وجوب الأمن زوال العبودية لأن العبد بين الخوف والرجاء، قال تعالى: "وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا" [الأنبياء/٩٠].[٢] فيقول سهل التسترى: "إن الخوف والرجاء لا زمان للإنسان، فإذا استويا قامت له أحواله، وإذا رجح أحدهما بطل الآخر"[٣] فإن العارف الخائف خير من العارف الواصف. يعنى من وصف نفسه بالمعرفة، إذ لو كان عارفاً لكان خائفاً، قال تعالى: "إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ" [فاطر/٢٨]. أى: العلماء به، ولو كان خائفاً لكان ساكتاً".[٤] وبذلك فإن الأولياء لا يراهم أحد فى الدنيا ولا فى الآخرة.

وحجتهم أيضاً أن الشهرة فتنة، وأن الذى احترز من الشهرة ولى، والفتنة تؤدى إلى الكذب، ولما كان الولى صادقاً فى ولايته، وجب عليه ستر حاله واخفاؤه، فإن الكاذب لا تقع عليه اسم الولاية، ويكون اظهار الكرامة على يده محالاً، فإنه يلزم أن تسقط الفتنة عن حاله. فإن التكلف فى اظهار ولايته يكون رعونة. وهناك أقوال كثيرة لمشايخ الصوفية تؤكد على ذلك، فنجد السرى السقطى (ت٢٥١هـ أو ٢٥٣هـ) يقول: "من أصغى إلى قول الناس عنه أنه ولى، فهو أسير فى يد نفسه ما برح".[٥] ويقول أبوبكر بن حامد الترمذى: "الولى فى ستر حاله أبداً، والكون كله ناطق عن ولايته، والمدعى ناطق به، والكون كله ينكر عليه".[٦] وكذلك أحمد بن أبى الورد يرى أن الولاية الحقيقية تكمن فى ستر وصيانة السر والكرامات. [٧] وأيضاً يقول شاه الكرمانى (ت تقريباً قبل الثلثمائة هـ): "لأهل الفضل فضل ما لم يروه، فإذا رأوه فلا فضل لهم. ولأهل الولاية ولاية ما لم يروها، فإذا رأوها فلا ولاية لهم".[٨] أما بشر الحافى، فيرى أن العارفون قوم لا يعرفهم إلا الله، ولا يُكرمون إلا لله تعالى.[٩]

(١) ابن عجيبة، البحر المديد فى تفسير القرآن المجيد، جـ١، مصدر سابق، ص٩٣.
(٢) الكلاباذى، التعرف لمذهب أهل التصوف، تحقيق/ أرثر جون أربرى، مكتبة الخانجى، ط٢، القاهرة، ١٩٩٤م، ص٧٤.
(٣) التسترى، تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، ص١٨٧.
(٤) القشيرى، الرسالة، مصدر سابق، ص٢٢٤.
(٥) المناوى، الكواكب الدرية، جـ١، تحقيق د/ محمد أديب الجادر، دار صادر، بيروت، د.ت، ص٢١.
(٦) السُلمى، طبقات الصوفية، مصدر سابق، ص٢٨٢.
(٧) نفس المصدر السابق، ص٢٥٠.
(٨) نفس المصدر السابق، ص١٩٣.
(٩) العطار، تذكرة الأولياء، جـ١، مصدر سابق، ص١٥٨.

أما من يجوز معرفة الولى بأنه ولى، لأن ولايته كرامة من الله تعالى للعبد، والكرامات والنعم يجوز أن يعلم ذلك فيقضى زيادة الشكر. إذ يصعب أن يكون إنسان ولياً وتجرى عليه كرامات ناقضة للعادة، وهو لا يعرف أنه ولى، وأن هذه كرامات. وبالتالى فليس من شرط تحقيق الولاية فى الحال الوفاء فى المآل. ثم إن كان ذلك من شرطه أيضاً فيجوز أن يكون هذا الولى خُص بكرامة هى: تعريف الحق إياه أنه مأمون العاقبة، إذ القول بجواز كرامات الأولياء واجب، وهو وإن قارفه خوف العقاب، فما هو عليه من الهيبة والتعظيم والاجلال فى الحال أتم وأشد؛ فإن اليسير من التعظيم والهيبة أهدأ للقلوب من كثير من الخوف. لذلك يقول الجنيد: "من صفة الولى أن لا يكون له خوف، لأن الخوف ترقب مكرره يحل فى المستقبل، أو انتظار محبوب يفوت فى المستأنف، والولى ابن وقته، ليس له مستقبل فيخاف شيئاً. وكما لا خوف له، لا رجاء له، لأن الرجاء انتظار محبوب يحصل، أو مكروه يكشف، وذلك فى الثانى من الوقت. كذلك لا يحزن، لأن الحزن من حزونة الوقت. فمن كان فى ضياء الرضا وروضة الموافقة أين يكون له حزن، كما قال تعالى: "أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ولا هُمْ يَحْزَنُونَ" [يونس/٦٢].(١)

وبذلك يجوز أن يُعرف الولى أنه ولى ويعرفه الناس ومع ذلك لا يفتخر ولا يغتر لأن الحال والوقت كانا تحت تصرفه. فيقول أبوعبدالله السجزى: "علامة الأولياء ثلاثة: تواضع عن رفعة وزهد عن قُدرة، وإنصاف عن قوة".(٢) فلا مجال لأن يصيبه الغرور، فنجد ابراهيم النصرأباذى(٣) يُسئل: ما كرامتك؟ قال لا أعرف لى كرامة ... إلا أن الله أحالنى على الشبلى، حتى أنه صار الأمر إلى أن ناساً كثيراً وصلوا إلى مقام الولاية بسببى، وما كنت أنا فى اليقين. وكذلك أبوالعباس القصاب، عندما سأل عن الولاية، قال: لا أعرف الكرامات؟ لكن أعلم أنى كنت قصاباً أذبح كل يوم غنمة، وأحمل لحمها على رأسى، وأدور فى الأسواق والسكك لأبيعه، لعلنى أكسب فِلساً أو فلسين، والآن أرى الناس يقصدوننى من المشرق إلى المغرب.(٤)

(١) الهجويرى، كشف المحجوب، جـ٢، مصدر سابق، ص٤٥١، وكذلك القشيرى، الرسالة، مصدر سابق، ص٢٢٦.
(٢) جامى، نفحات الأنس، مصدر سابق، ص٣٧٩.
(٣) العطار، تذكرة الأولياء، مصدر سابق، ص٧٤٣.
(٤) نفس المصدر السابق، ص٥٥٩.

إذن الولى هنا تتحقق فى ولايته، فإنه يسقط عنه حال الخوف، ويرد إلى حال الهيبة، فكما يتقلب العوام فى حال الخوف، يتقلب هو فى حال الهيبة، لأن الهيبة أرق وألطف، وكما يتقلب العوام فى حال الرجاء يتقلب هو فى حال الأنس والطمأنينة. عموماً فإن الشرط الذى يعتبر العامل المشترك فى صحة الولاية هو الطاعة، فأولياء الله "هم المؤمنين المتقين فبحسب إيمان العبد وتقواه تكون ولايته لله تعالى، فمن كان أكمل إيماناً وتقوى، كان أكمل ولاية لله فالناس متفاضلون فى ولاية الله عز وجل بحسب تفاضلهم فى الإيمان والتقوى، كما يعتبر أولياء الله بصفاتهم وأفعالهم وأحوالهم التى دل عليها الكتاب والسُنة ويعرفون بنور الإيمان والقرآن وبحقائق الإيمان الباطنة وشرائع الإسلام الظاهرة. فيقول السُلمى[1]: "واتبع سنة النبى – صلى الله عليه وسلم – فى جميع أحوالك وأفعالك وأقوالك، وإياك ومخالفته، فإنه تعالى يقول: "فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ" [النور /٦٣]، وقال تعالى: "وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا" [النور/ ٥٤].

المبحث الثالث: أصل نشأة الولاية

المطلب الأول: مصطلح الولاية فى القرآن والسنة

لفظ الولاية متداول بين الناس أصله فى الكتاب والسُنة، قال تعالى: "أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ولا هُمْ يَحْزَنُونَ" [يونس/٦٢]. وقال أيضاً: "نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا" [فصلت/٣١]، وقال فى موضع آخر: "اللَّهُ وَلِيُّ الَذِينَ آمَنُوا" [البقرة/٢٥٧]. وقال تعالى: "يَا أَيُّهَا الَذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا اليَهُودَ والنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ومَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمِينَ" [المائدة/٥١]، وقال تعالى: "ومَن يَتَوَلَّ اللَّهَ ورَسُولَهُ والَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الغَالِبُونَ" [المائدة/٥٦].

فقد وردت كلمة "ولى"، و "أولياء" فى عدد غير قليل من الآيات القرآنية، ووصف الله تعالى نفسه بأنه "وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا" [البقرة/٢٥٧]. و "وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ" [آل عمران/٦٨] و"ووَلِيُّ الْمُتَّقِينَ" [الجاثية/١٩]. وأنه "هو الولى وهو يحيى الموتى" [الشورى/٢٩]. كما أنه "هو الولى الحميد" [الشورى/٢٨]. وقال تعالى مخاطباً المؤمنين "وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ" [البقرة/١٠٧]. كما وردت كلمة "أولياء" بالجمع للدلالة على عباد الله المقربين إليه المجاهدين فى سبيله. وقال تعالى: "أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ولا هُمْ يَحْزَنُونَ". [يونس/٦٢].

(١) السُلمى، رسالة روضة المريدين، تصحيح/ محمد سورى، ضمن كتاب مجموعة آثار أبوعبدالرحمن سُلمى، مصدر سابق، ص٣٧٤.

وقال النبى – صلى الله عليه وسلم –: "إن من عباد الله لعباداً يغبطهم الأنبياء والشهداء. قيل من هم يا رسول الله، وصفهم لنا لعلنا نحبهم. قال عليه السلام: قوم تحابوا بروح الله من غير أموال ولا اكتساب، وجوههم نور على منابر من نور، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس"، تم تلا: "أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ولا هُمْ يَحْزَنُونَ". وقال النبى – صلى الله عليه وسلم – أن الله عز وجل قال: "من آذى لى ولياً فقد استحل محاربتى".[١] وفى حديث آخر: "وإنى لأثأر لأوليائى كما يثأر الليث الحرب".

ويذكر ابن قتيبة فى عيونه فى كتاب الزهد[٢] أن من ضمن ما ناجى الله به موسى عليه السلام هو: أنه من أهان لى ولياً أو أخافه، فقد بارزنى بالمحاربة وبادأنى وعرضنى لنفسه ودعانى إليها، وأنا أسرع شئ إلى نصرة أوليائى. أفيظن الذى يحاربنى فيهم أنه يقوم لى! أم يظن الذى يعادينى فيهم أنه يُعجزنى! أم يظن الذى يبادرنى إليهم أنه يسبقنى أو يفوتنى! كيف، وأنا الثلائى لهم فى الدنيا والآخرة، لا أَكِلُ نصرهم إلى غيرى!.

ومن هنا يتضح لنا أن الولى كمصطلح لم يكن مُسمى من الخيال ولكن له أصل فى القرآن والسُنة، وبالتالى ليس من العقل أن ننفيه أو نعاديه، فيقول سهل التسترى: "إياكم ومعاداة من أشهره الله بالولاية؛ فإنه كان بالبصرة ولى فعاداه أهلها وآذوه، فغضب الله عليهم، فهلكوا أجمعين فى ليلة ...، وقال: طوبى لمن تعرف بالأولياء، فإنه ربما استدرك ما فاته من الطاعة، وإن لم يستدرك شفعوا فيه، لأنهم أهل فتوة".[٣] ونجد أيضاً الترمذى (ت٢٨٦هـ) صاحب كتاب يسمى: "خَتم الولاية"[٤] يقول: "إنكار ولاية الأولياء، فى قلوب الجهال، من ضيق صدورهم عن المصادر، وبعد علومهم عن موارد القدرة ... وقال: الاستهانة بالأولياء من قلة المعرفة بالله تعالى".[٥] وقال ممشاذ (ت٢٩٩هـ): "من أنكر على ولى من أولياء الله تعالى فأدنى عقوبته ألا يُعطيه الله تعالى ما أعطاه لوليه".[٦]

---

(١) البخارى، الصحيح، كتاب الرقاق، باب التواضع.

(٢) ابن قتيبة، عيون الاخبار، جـ٢، مصدر سابق، ص٢٩٣.

(٣) المناوى، الكواكب الدرية، جـ١، مصدر سابق، ص٦٣٩، وكذلك جامى، نفحات الأنس، مصدر سابق، ص٢١٧.

(٤) جامى، نفحات الأنس، مصدر سابق، ص٣٩٧.

(٥) السُلمى، طبقات الصوفية، مصدر سابق، ص٢٨٢.

(٦) جامى، نفحات الأنس، مصدر سابق، ص٣٠٦.

إذن المراد من هذا هو أن تعرف أن لله عز وجل أولياء قد خصهم بمحبته وولايته، وهم ولاة ملكه الذين اصطفاهم وجعلهم آية اظهار فعله، وخصهم بأنواع الكرامات، وطهرهم من آفات الطبع. وخلصهم من متابعة النفس، فلا هم لهم سواه، ولا أنس لهم إلا معه. وقد كانوا قبلنا فى القرون الماضية، وهم موجودون الآن، وسيبقون من بعد هذا إلى يوم القيامة.

من كل هذا ظهر من ينكر التخصيص لبعض الرجال أو ظهر من ينكر الولاية وعلى رأسهم بعض المعتزلة وبعض علماء السلفية، فالمعتزلة ينكرون تخصيص واحد دون الآخر من المؤمنين، أما أهل السلف يجيزون التخصيص، ولكنهم يقولون أنهم كانوا، ولم يبقوا اليوم. وانكار الماضى والمستقبل كلاهما سيان، لأن طرفاً من الإنكار لا يكون أولى من طرف آخر. فكما أن كيد الكافرين يضمحل فى مقابلة معجزات الرسول، فكذلك دعاوى الملبسين تتلاشى عند ظهور أنوار الصديقين. فإن المنكرين للخصوصية جاحدين لوجود التربية النبوية. فإذا كنتم يا معشر المعتزلة فى شك مما خصصا به الأولياء من الأنوار، وما أنزل على قلوبهم من المعارف والأسرار، وما ظهر عليهم من البهجة والأنوار، وما اهتدى على أيديهم من الصالحين والأبرار، فآتوا أنتم بشئ من ذلك، وانتصروا بما قدرتم من دون الله إن كنتم صادقين فى المعارضة.(١) فإن الهداية كلها بيد الله، يخص من يشاء من عباده، وليس لغيره منها شئ، كما أبان الحق جل جلاله بقوله: "لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ ولَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ" [البقرة/٢٧٢]. كما أنه بشر الصديقين والأولياء بوجود الخصوصية، المنقادين لأهلها، أن لهم جنات المعارف فى الدنيا وجنات الزخارف فى الآخرة، تجرى من تحتها قلوب أهلها أنوار العلوم والمعارف.

المطلب الثانى : تطور مفهوم الولاية

تميز لفظ الولاية فى القرآن الكريم والسُنة النبوية الشريفة بعدة صفات وخصائص ووضع القرآن عدة فضائل للرجال الصالحين والعُباد المخلصين، جعلت من هذا اللفظ – لفظ الولاية – واضحاً ومميزاً فى العقيدة الإسلامية، وعلى هذا المنهج صار أعلام وأقطاب الصوفية، فإذا حللنا هذه الفضائل والصفات فى القرآن وعند أقطاب الصوفية، نجد أن مصطلح الولاية وإن كان قديماً إلا أنه محدد بمعانى

(١) ابن عجيبة، البحر المديد فى تفسير القرآن، جـ١، مصدر سابق، ص٨٩.

وتعريفات خاصة نابعة من ثقافة المسلمين، فيقول سبحانه وتعالى: "فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا (*) ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا" [النساء/٦٩-٧٠]. وقال تعالى: "الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (*) لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ" [يونس/٦٢: ٦٤].

وهذا لأن أولياء الله هم الذين آمنوا به ووالوه، فأحبوا ما يحب، وأبغضوا ما يبغض، ورضوا بما يرضى وسخطوا بما يسخط، وأمروا بما يأمر ونهوا عما نهى، وأعطو لما يحب أن يعطى، ومنعوا من يحب أن يمنع. والولى من لا يكون له عمل يرضاه، ولا حال يسكن فيه، ولا وقت يرجع إليه. ويكون سره مشاهداً للحق. لا يكون عنه رجوع ولا له إليه سبيل، يُدهشه وقته عن الإخبار عنه والمقام فيه، لا يأوى إلى معلوم ولا يسكن إلى محبوب.(١)

وهؤلاء – الأولياء– قال فيهم المولى عز وجل: "إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ" [الحجر/٤٢]. وقال عز وجل: "وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ" [العنكبوت/٦٩]. وقال سبحانه: "رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ" [الأحزاب/٢٣]. وقال تعالى: "إِنَّ الَذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ المَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا ولا تَحْزَنُوا وأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (*) نَحْنُ أَوْلَيَاؤُكُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وفِي الآخِرَةِ ولَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ ولَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (*) نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ" [فصلت٣٠: ٣١]. وقال تعالى: "مِّنْ أَهْلِ الكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وهُمْ يَسْجُدُونَ (*) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ والْيَوْمِ الآخِرِ ويَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ويَنْهَوْنَ عَنِ المُنكَرِ ويُسَارِعُونَ فِي الخَيْرَاتِ وأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ" [آل عمران/ ١١٣ :١١٤]. وقال تعالى: "واصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ والْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وجْهَهُ ولا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا ولا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا" [الكهف/٢٨]. وقال تعالى: " لِلْفُقَرَاءِ الَذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً" [البقرة/٢٧٣].

(١) السلمى، كتاب بيان تذلل الفقراء، تصحيح كنث هنرى كامب، ضمن كتاب مجموعة آثار أبوعبدالرحمن سلمى، مصدر سابق، ص٥٥.

يقول المحاسبى فى ذكر الأولياء مفسراً لتلك الآيات: "كانوا للمسكنة محبين، ومن خوف الفقر آمنين، وبالله تعالى فى أرزاقهم واثقين، وبمقادير الله عز وجل مسرورين، وفى البلاء راضين. وفى الرخاء شاكرين وفى الضراء صابرين، وفى السراء حامدين، وكانوا لله متواضعين، وعلى أنفسهم مؤثرين، وعن حب العلو ورعين، وكانوا إذا أقبلت عليهم الدنيا حزنوا. وإذا أقبل عليهم الفقر قالوا: مرحباً بشعار الصالحين. (١) فإن معاملة العبد مع مولاه: إما أن تكون لطلب الأجور، وإما لرفع الستور، فالأول يعطى أجره من وراء الباب، والثانى يدخل مع الأحباب. وأما العامل للدنيا فهو ظالم لنفسه "وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ" وفى بعض الآثار: طالب الدنيا أسير، وطالب الآخرة أجير، وطالب الحق أمير.(٢) ويضيف التسترى: "إن الله سلب الدنيا عن أوليائه وحَماها عن أصفيائه، وأخرجها من قلوب أهل وداده، لأنه لم يرضها لهم.(٣) فهم – أولياء الله – بالإضافة إلى الخلق صم بكم عمى، ...، فهم فى واد والخلق فى واد، يأمرون الخلق بأمر الله عز وجل وينهون بنهيه نيابة عن النبى – صلى الله عليه وسلم – هم الوراث على الحقيقة. (٤) فإن ما ذكره المعتزلة وغيرهم كابن حزم من أن آيات الأنبياء مختصة بهم كلام صحيح، لكن كرامات الأولياء هى من دلائل النبوة، فإنها لا توجد إلا لمن اتبع النبى الصادق فصار وجودها كوجود ما أخبر به النبى من الغيب.(٥)

ولقد صار على هذه الأوصاف القرآنية للأولياء الكثير من مشايخ الصوفية للتأكيد على أن صورة الولى الحقيقية هى صورة إسلامية بامتياز، فعندما سُئل أبوعبدالله بن سالم البصرى (ت٢٩٧هـ) عن حقيقة الولاية، فيقول: "بلطافة اللسان، وحسن الأخلاق، وطراوة الوجه، وسخاء النفس، وقلة الاعتراض، وقبول العذر ممن يعتذر عندهم، والشفقة على جميع الخلائق: أخيارهم، وأشرارهم".(٦) فإن الولى هو الفانى فى حاله، والباقى فى مشاهدة الحق: لم يكن له عن نفسه اخبار، ولا مع غير الله قرار.(٧) وسئل أبويزيد البسطامى: من الولى؟ قال: "الولى هو الصابر تحت الأمر

(١) عبدالله المكى، روض الرياحين فى حكايات الصالحين، مصدر سابق، ص٢٥.
(٢) ابن عجيبة، البحر المديد فى تفسير القرآن المجيد، جـ١، مصدر سابق، ص٣٠٥.
(٣) المناوى، الكواكب الدرية، جـ١، مصدر سابق، ص٦٣٩.
(٤) عبدالقادر الجيلانى، الفتح الربانى والفيض الرحمانى، مطبعة البابى الحلبى، ط١، القاهرة، د.ت، ص١٥.
(٥) ابن حزم، الفصل فى الملل والنحل، جـ١، مصدر سابق، ص٥٩، وكذلك، ابن تيمية، النبوات، مصدر سابق، ص١٥٧.
(٦) جامى، نفحات الأنس، مصدر سابق، ص٤٠٩.
(٧) الهجويرى، كشف المحجوب، جـ٢، مصدر سابق، ص٤٥١.

والنهى".[١] لأنه كلما ازدادت محبة الحق فى قلبه، أصبح أمره أكثر تعظيماً على قلبه، وازداد جسده بعداً عن نهيه. أولياء الله هم المؤمنون المتقون. [٢] ومحمد بن عليان النسوى يرى: "من علامة الأولياء خوف الانقطاع عنه؛ لشدة فى قلوبهم، من الإيثار له، والشوق إليه. فإن الأولياء، هم الذين باطنهم أفضل من ظاهرهم".[٣] أما أحمد بن أبى الورد، فيرى العلاقة بين الولى وخالقه علاقة محبة وطاعة، فيرى: "إذا زاد الله فى الولى ثلاثة أشياء زاد منه ثلاثة أشياء: إذا زاد جاهه زاد تواضعه؛ وإذا زاد ماله زاد سخاؤه؛ وإذا زاد عمره زاد اجتهاده".[٤]

وأخيراً فإن صورة الولى فى الإسلام تدور حول وصفين وكلا الوصفين واجب حتى يكون الولى ولياً: الأول: يجب قيامه بحقوق الله على الاستقصاء والاستيفاء. والثانى: دوام حفظ الله إياه فى السراء والضراء. لذلك وجدنا فى أحوال الأولياء من يعين بوصف أو بحال، فنجد مثلاً من يقول فلان أهل المعرفة؛ أو: أهل المعاملة، أو: أهل المحبة، أو: أهل التوحيد. وكمال الحال ونهاية الدرجات هو لأولياء الله.

بناءً على ذلك فإن الولاية لا تحتاج أن تدخل إلى قلب الإسلام بل هى شرايينه وعينه الذكية وقلبه النابض، فقد أرجع بعض الدارسين فى العصر الحديث منشأ هذه الفكرة إلى ما قبل التصوف، بل إلى ما قبل الإسلام: ومن هؤلاء "آدم ميتز"[٥] الذى أرجع أصل الولاية إلى المذهب النصرانى الغنوصى، ويقول أن الصوفية هم الذين أدخلوا هذه الفكرة فى الإسلام. حتى إن أسين بلاثيوس[٦] يربط بين مفهوم الكرامة عند الأولياء والكلمة اليونانية Charisma والتى تعنى المواهب والأفضال الاستثنائية وفوق المعتادة التى يشرف بها الله النفوس المختارة.

ويرى الدكتور أبوالعلا أبوالعلا عفيفى أن فكرة الولاية انتقلت إلى الصوفية عن الشيعة، وأن كان يرجع أصلها إلى ما قبل الشيعة والصوفية، فيقول أن فكرة الولاية أو ما يعادلها كانت موجودة فى البلاد التى فتحها المسلمون، وكانت منتشرة

---

(١) نفس المصدر السابق، ص٤٥٢.

(٢) ابن تيمية، الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، مصدر سابق، ص١١.

(٣) السلمى، طبقات الصوفية، مصدر سابق، ص٤١٨.

(٤) نفس المصدر السابق، ص٢٥١.

(٥) آدم ميتز، الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى، ترجمة د/ محمد عبدالهادى أبوريدة، أعد فهارسه رفعت البدراوى، دار الكتاب العربى، بيروت، د.ت، ص٤٦.

(٦) أسين بلاثيوس، ابن عربى حياته ومذهبه، ترجمة د/ عبدالرحمن بدوى، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٥م، ص١٩٣.

انتشار الإسلام نفسه، فلما ظهرت حركة التصوف فى البلاد الإسلامية لم تخلق فكرة الولاية خلقاً، وإنما شكلت أفكاراً كانت جزءاً من التراث الروحى لهذه البلاد بأن أبرزت فيها الجانب الصوفى من الحياة الدينية.(١)

طبعاً هذا الكلام مغلوط، فإذا كانت الولاية تعنى الطاعة والقرب وموالاة الخالق بالمحبة فى هذه البلاد، فلماذا فتح المسلمون هذه البلاد التى تنعم بكل هذه الجوانب التعبدية والأخلاقية؟ فهم مسلمون قبل أن يدخل الإسلام، وهذا يخالف حدود المنطق والعقل!! فالرجل الصالح قبل الإسلام كان لغرض محدد مثل مهمة الخضر مع سيدنا موسى، وأهل الكهف والسيدة مريم العذراء. وكانوا جميعاً فى حالة صراع واختلاف مع أهل البلدان التى ظهروا فيها مما يؤكد أن هذه الطبيعة لم تكن فى حالة ود ومحبة مع أصحابها لذلك جاء الإسلام ليجعل من الولاية والأولياء حقيقة وليست عارض، فمن الممكن أن يكون لفظ الولاية قديم قدم اللغة العربية، لكنه لم يحمل المعانى التى عبر عنها القرآن فى حق أولياءوه وأصفياؤه. فإن الولى شخص يؤيده الله وينصره، لنصرته لدين الله. فالذين جاهدوا فى الله كانوا أولياءه، وكذلك الذين اتقوا وأخلصوا فى دينهم.

ومن وجهة نظرى أن النقطة الأهم التى يجب الرد عليها وهى أن الصوفية أخذوا عن الشيعة أصول ومبادئ الولاية، وهذه عبارة غير محققة، بل لا أود أن أقول بأنها عبارة تغيب العقل والتفكير، فإن فلاسفة الصوفية قد تأثروا بفكرة الأوصياء التى قال بها الشيعة الباطنية، فإن الوصى أو الأساس هو الإمام المعصوم عندهم وأطلقوا عليه بعض الأسماء منها أنه الإمام على بن أبى طالب أو القلم أو النفس الكلية. وهذا الوصى أو الأساس قام مقام النبى. لذلك يقول الكرمانى وهو أحد أعلام الشيعة الباطنية: "الوصى عقل قائم بالفعل مثله مثل الناطق (النبى)".(٢) وأستاذنا طيب الذكر الدكتور النشار قال: بأن فلاسفة الصوفية تأثروا "بفكرة القائم خير من الناطق".(٣) أى أن الوصى أفضل من النبى.

(١) أبو العلا عفيفى، التصوف الثورة الروحية فى الإسلام، مرجع سابق، ص٢٩٤.

(٢) الكرمانى، راحة العقل، تحقيق وتقديم د/ مصطفى غالب، دار الأندلس للطباعة والنشر، ط٢، بيروت، ١٩٨٣م، ص٢١٤.

(٣) د/ النشار، نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام، جـ٢، مصدر سابق، ص٩٠.

وللأسف كان التأثير شديد، فوقع فى ذلك عن دون عمد أو قصد علماؤنا الأفاضل، فنجد على سبيل المثال عبدالقادر الجيلانى[١] يقول: "هو الإلهام فى قلوبهم لأنهم أوصياء الأنبياء وخلفاؤهم وغلمانهم". وهنا ذكر كلمة "أوصياء" لكنه بالتأكيد لا يعرفها كما عرفها الشيعة الباطنية. فكان يجب على الدكتور أبوالعلا عفيفى أن يحدد ماذا أخذ فلاسفة الصوفية من غلاة الشيعة؟ وليس كما أطلق هذه العبارات بدون تحديد.

هنا نقول بأن مفهوم الولاية بدأ يخرج عن مساره الصحيح ونجد ألفاظ ومصطلحات ليس لها وجود فى الكتاب والسُنة. فظهرت فكرة القطب أو الغوث وهو يمثل أو شبيه بفكرة الإمام المعصوم لدى الشيعة الباطنية. وهنا أصبح القطب أو الغوث أكمل إنسان ممكن فى مقام الفردية أو هو الواحد الذى هو موضع نظر الله فى كل زمان. ليظل كذلك دونه فى المرتبة وهم الأوتاد الذين كانوا من قبل أبدالاً ويبلغ عددهم الأربعين. ويسمى القطب غوثاً باعتبار التجاء الملهوف إليه.

وأصبح لكل بدل اقليم.[٢] وكذلك يزال القطب يتصور فى كل زمان بصورة أكملهم ليعلى شأنهم. [٣] فيقول ابن عربى (ت٦٣٨هـ): "فكل كامل خليفة وما يخلو من كامل أصلاً، ولكون الإنسان الكامل على صورة الكاملة صحت له الخلافة والنيابة عن الله تعالى فى العالم".[٤] فالعالم من وجهة نظر ابن عربى لا يخلو من قطب يكون كامل وخليفة الله فى الأرض، فهو يتفق مع الشيعة الباطنية على أنه لابد فى كل عصر وزمان من إمام معصوم قائم بالحق، يرجع إليه فى تأويلات الظاهر، ويكشف كل لبس وغموض.

الأخطر فى هذا التصور أنه يجعل الولاية خارج نطاق الأسباب الموصلة إليها، وهو الالتزام بكل قول وفعل صادر من القرآن والسُنة وتخرج عن نطاق الطاعة الشرعية. بل أصبحت الولاية عند فلاسفة الصوفية وهبية[٥]، فالولى هو من اختاره الله، وجذبه إليه، وليس من شرط ذلك أن يكون ذا خصال طيبة كالصلاح والتقوى، بل تكون الولاية بلا سبب، وبغير حكمة، فهى جائزة فى المجانين والفسقة والظلمة والمشركين

(١) الجيلانى، الفتح الربانى والفيض الرحمانى، مصدر سابق، ص١٦.

(٢) ابن عربى، الفتوحات المكية، تحقيق د/ عثمان يحيى، مراجعة د/ ابراهيم مدكور، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٢م، ص٥٣.

(٣) عبدالكريم الجيلى، الإنسان الكامل فى معرفة الأوائل والأواخر، مطبعة البابى الحلبى، القاهرة، د.ت، ص٥٠.

(٤) ابن عربى، المعارف الإلهية، دار التعاون، القاهرة، ١٩٨٠م، ص٥.

(٥) د/ عبدالفتاح أحمد فؤاد، فلاسفة الإسلام والصوفية، وموقف أهل السُنة منهم، دار الوفاء، ط١، الاسكندرية، ٢٠٠٦م، ص٢٨٤.

والزنادقة. ويبرر فلاسفة الصوفية ما يصدر عن أقطابهم من فواحش كالزنا وشرب الخمر ونحو ذلك بأنها تصورات خيالية يراها غيرهم حقيقية، وهى ليست كذلك، فإنهم لم يفعلوا شيئاً منها، وإنما استتروا بذلك عن العامة.

فلقد اتفق سلف الآمة وسائر أولياء الله تعالى على أن الأنبياء أفضل من الأولياء الذين ليسوا بأنبياء، وقد رتب الله عباده السعداء المنعم عليهم أربع مراتب فقال تعالى: "ومَن يُطِعِ اللَّهَ والرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ والصِّدِّيقِينَ والشُّهَدَاءِ والصَّالِحِينَ وحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقاً" [النساء/٦٩]. فلفظ الشرع والشريعة إذا أريد به الكتاب والسُنة لم يكن لأحد من أولياء الله ولا لغيرهم أن يخرج عنه، فإن الرسول – صلى الله عله وسلم – لم يشرع لأمته التصديق بوجود هؤلاء – الأقطاب – ولا أصحابه كانوا يجعلون ذلك من الدين ولا أئمة المسلمين وأيضاً فجميع هذه الألفاظ لفظ القطب والغوث والأوتاد والنجباء وغيرها لم ينقل أحد عن النبى – صلى الله عليه وسلم – بإسناد معروف أن تكلم بشئ منها ولا أصحابه ولكن لفظ الأبدال تكلم به بعض السلف ويروى فيه عن النبى – صلى الله عليه وسلم – ولكنه حديث ضعيف.(١)

وحتى لا نوصف بالجمود، فكان لابد أن نساير التطور الفكرى لمصطلح الولاية، فإن التطور من السُنن الكونية، ولكن شرطى على نفسى ألا يخرج عن نطاق الملة الإسلامية. فأول رواية كانت على يد السُلمى ليدلل على أن لله تعالى فى الأرض أولياء وبدلاء بحديث للرسول عليه الصلاة والسلام، فعن أنس رضى الله عنه، عن النبى – صلى الله عليه وسلم –، قال: "بُدلاء أمتى أربعون رجلاً: اثنان وعشرون بالشام، وثمانية عشر بالعراق، كلما مات منهم واحد أبدل الله مكانه آخر. إذا جاء الأمر قبضوا".(٢)

ولقد تأثر بعض أقطاب الصوفية بهذه الرواية(٣)، فيقول أبوبكر الوراق: لم يزل فى الأمم أخيار وبدلاء واوتاد على المراتب. وأيضاً قول أبا عثمان المغربى: البدلاء أربعون والأمناء سبعة والخلفاء من الأئمة ثلاثة، والواحد هو القطب، والقطب عارف بهم جميعاً ومشرف عليهم ولا يعرفه أحد ولا يشرف عليه وهو إمام الأولياء، والثلاثة الذين هم الخلفاء من الأئمة يعرفون السبعة، والسبعة الأمناء يعرفون الأربعين الذين هم

(١) ابن تيمية، منهاج أهل السنة، جـ١، المطبعة الكبرى الأميرية، القاهرة، ١٣٢٢هـ، ص٢٢.

(٢) السُلمى، كتاب الأربعين للصوفية، تصحيح، محمد سورى، ضمن كتاب مجموعة آثار أبوعبدالرحمن سُلمى، مصدر سابق، ص٣٠٣.

(٣) السُلمى، التفسير، جـ٢، مصدر سابق، ص١٧٤.

البدلاء ولا يعرفهم البدلاء، والأربعون يعرفون سائر الأولياء من الأمة ولا يعرفهم من الأولياء أحد فإذا نقص الله من الأربعين واحداً أبدل مكانه واحداً من أولياء الأمة، وإذا نقص من السبعة واحداً أبدل مكانه واحداً من الأربعين، وإذا نقص من الثلاثة واحداً جعل مكانه من السبعة فإذا مضى القطب الذى هو واحد فى العدد، وبه قوام أعداد الخلق جعل بدله واحداً من الثلاثة هكذا إلى أن يأذن الله فى قيام الساعة.

وكذلك أراد بعض أقطاب الصوفية اعطاء هذه الرواية المزيد من الصدق، واعتقد أنها كانت بداية دخول التشييع مجال التصوف، فنسبوا إلى سيدنا علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال: البدلاء بالشام، والنجباء بمصر، والعصائب بالعراق، والنقباء بخراسان، والأوتاد بسائر الأرض، والخضر عليه السلام سيد القوم، وعن الخضر عليه السلام أنه قال: ثلاث مئة هم الأولياء، وسبعون هم النجباء، وأربعون هم العرفاء، وثلاثة هم المختارون، وواحد منهم هو الغوث.[١]

وهؤلاء أصبحوا أهل الحل والعقد – الأولياء – مكتومون، لا يتعارفون فيما بينهم، ولا يعلمون جمال حالهم. ففى جميع الأحوال يكونون مستورين من الخلق ومن نفوسهم أيضاً. [٢] وهذه هى نفس فكرة التقية عند الشيعة. ما يلاحظ أنهم أخذوا فكرة الابدال عن السُلمى وأضافوا إليها بعض الألفاظ والمصطلحات التى لم يذكرها السُلمى فى حديثه، وتضاربوا حول عدد الأولياء، فيقال ثلثمائة، هم الأخيار، وأربعون يقال لهم الأبدال، وسبعة يقال لهم الأبرار، وأربعة يقال لهم الأوتاد، وثلاثة يقال لهم النقباء، وواحد هو قطب الأقطاب، وهو الغوث.

والرواية الثانية تنسب لأبى الدرداء[٣] رضى الله عنه أنه قال: إن لله عباداً يقال لهم الأبدال لم يبلغوا ما بلغوا بكثرة الصوم والصلاة والتخشع وحسن الحلية، ولكن بلغوا بصدق الورع وحسن النية، وسلامة الصدور والرحمة لجميع المسلمين، اصطفاهم الله بعلمه، واستخلصهم لنفسه، وهم أربعون رجلاً على مثل قلب ابراهيم عليه الصلاة والسلام، لا يموت الرجل منهم حتى يكون الله قد أنشأ من يخلفه.

(١) عبدالله المكى، روض الرياحين فى حكايات الصالحين، مصدر سابق، ص١٧.

(٢) جامى، نفحات الأنس، مصدر سابق، ص٣٥.

(٣) عبدالله المكى، روض الرياحين ، مصدر سابق، ص١٧.

وربما كان تفسير التسترى[١] لكلمة البدلاء التى من الممكن أن تكون ذكرت على لسان الصحابة أو أحد التابعين، هو الأقرب للصواب معتمداً على تفسير قوله تعالى: "أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ولا هُمْ يَحْزَنُونَ" [يونس/٦٢]. قال التسترى: هم الذين وصفهم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إذا رُءوا ذُكر الله، وهم المجاهدون فى الله، السابقون إليه، الذين توالت أفعالهم على الموافقة، أولئك هم المؤمنون حقاً. وقال: اجتمع الخير كله فى هذه الأربعة، وبها صاروا أبدالاً أخماص البطون، والاعتزال عن الخلق، وسهر الليل، والصمت. قيل له: لم سمى الأبدال أبدالاً؟ فقال: لأنهم يبدلون الأحوال، أخرجوا أبدانهم عن الحيل فى سرهم، ثم لا يزالون ينقلون من حال إلى حال، ومن علم إلى علم، فهم أبداً فى المزيد من العلم فيما بينهم وبين ربهم. قيل له: الأوتاد أفضل أم الأبدال؟ قال: الأوتاد، قيل: وكيف ذلك؟ قال: لأن الأوتاد قد بلغوا، وثبتت أركانهم، والأبدال ينقلبون من حال إلى حال. وقال التسترى: لقيت ألفاً وخمسمائة صديق، فمنهم أربعون بديلاً وسبعة أوتاد، وطريقهم ومذهبهم ما أنا عليه.

إذن نلاحظ أن السُلمى والتسترى حتى أبى الدرداء لم يذكروا من بعيد أو قريب مصطلح القطب والغوث، وأن التسترى عندما عرف البدلاء، قال فى حقهم أنهم مؤمنون متمسكون بالكتاب والسُنة. فإن من أهم صفات البدلاء:[٢] الصبر على فعل الأوامر، واجتناب النواهى، وصحبة الصالحين، وخدمة الفقراء. حتى إن مفهوم الأوتاد عند التسترى عبارة عن عباد استأنسوا بالله تعالى بعد المكابدة، فرسخوا، واعتقوا الروح بعد المجاهدة، فطمأنوا بوصولهم إلى مقام الولاية.[٣]

وكما يقول أستاذى الدكتور أحمد الجزار[٤]: العبادات كلها تتضافر جميعاً فى توكيد الوحدانية لله وطاعته، ومثل هذه الطاعة والامتثال لأوامره تعالى والانتهاء عن نواهيه هى من صميم الاعتقاد بألوهيته ووحدانيته، بل هى نفسها – العبادة – المعرفة بالله، ولأجلها خلق الله الإنسان بقوله تعالى: "ومَا خَلَقْتُ الجِنَّ والإنسَ إلاَّ لِيَعْبُدُونِ" [الذاريات/٥٦]. ومعنى هذا أن الدين يتطلب الاعتقاد أو المعرفة بالله، ولابد من ذلك

(١) التسترى، تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، ص١٦٤.

(٢) القشيرى، الرسالة، مصدر سابق، ص٥٧.

(٣) نفس المصدر السابق، ص٢٢٤.

(٤) د/ أحمد الجزار، دراسات فى التصوف الإسلامى، دار الوفاء، ط١، الاسكندرية، ٢٠١٥م، ص١٨.

أولاً، وهذه المعرفة لابد فيها من الخضوع لألوهيته والإقرار بوحدانيته، وهذا لا يكون إلا بالعبادة لأن الدين يتضمن الخضوع والذل، ودين الله عبادته وطاعته والخضوع له بل إن الدين كله داخل فى العبادة.

فإن العبادة أصل كل ولاية ودليل كل كرامة، فمن يدعى أن قطب أو غوث بدون عبادة فهو من أتباع الشيطان، فهذا هو التطور لمصطلح الولاية عند مشايخ الصوفية، فهم أبدال ثم أوتاد ثم مستقرون فى مقام الصدق وهو مقام الولاية، ولم يظهر فى جُل تراجم شيوخ الصوفية مفهوم القطبية أو الغوثية، وإنما كان النادر الشاذ الذى لا يعتد به. فإن العبادة هى أول الطريق ومرتبة المبتدئين من المريدين.

وفى النهاية تأتى الخاتمة التى تحتوى على أهم النتائج التى توصل إليها الباحث حول موضوع "الولاية بين الإثبات والنفى".

١- نشأ الخلاف حول مفهوم الولاية، نتيجة نظر الباحثين إلى المصطلح ولم ينظروا إلى المعانى التى يتضمنها المصطلح، فنجد كلمة "الولاية" فى القرآن الكريم بمعانى كثيرة، قال تعالى: "ومَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ ولِياً مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَاناً مُّبِيناً" [النساء/١١٩]. وهؤلاء ولاة الشيطان موجودين فى كل زمان ومكان. وهناك المشركين الذين يتخذون من دون الله أولياء، قال تعالى فى حقهم: "اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى" [الزمر/٣]. فهناك أولياء الشيطان وأولياء الأصنام وهؤلاء بالتأكيد فى كل زمان ومكان، فإذا قال بعض الباحثين إن كلمة الولاية دخلت بلاد الإسلام من الأديان الأخرى، فهذا صحيح، ولكن وجب التنويه والتنبيه على أن الاسم غير المضمون، فعقيدة المسلم الصحيحة أنه لا يوالى إلا الله بعيداً عن موالاة الشيطان والأصنام والأفراد. فجاء رد الله سبحانه وتعالى على أولياء الشيطان، فقال لهم: "مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ من وليٍّ ولا واقٍ" [الرعد/٣٧]. وقال سبحانه وتعالى فى حق عباد الأصنام: "قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لا يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ نَفْعاً ولا ضَرّاً" [الرعد/١٦].

٢- الولاية فى الإسلام تعنى الطاعة وقمة العبادة، فإن الأولياء فى الإسلام همتهم المسابقة إلى ربهم عز وجل، والمسارعة إلى ما يرضيه، وزهدوا فى الدنيا وفى فضولها، وفى رياستها ونعيمها، فهانت عليهم، فصبروا قليلاً واستراحوا طويلاً. قال تعالى فى حقهم: "اللَّهُ وليُّ الَذينَ آمَنُوا ..." [البقرة/٢٥٧]. فهم قوم عرفوا فلازموا، فهم يراعوا ظاهرهم بحسن آداب الشرع والوقوف مع الأوامر بالمبالغة والجد والتباعد عن المناهى، فهم يعلمون أن الله عليهم رقيب، ويشاهد كل أحوالهم

فى الظاهر والباطن تصديقاً لقوله تعالى: "إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً" [النساء/١]. وأولياء الله المقتدون بسيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم – فيفعلون ما أمر به وينتهون عما نهى وزجر، ويقتدون به فيما بين لهم أن يتبعوه فيه، فيؤيدهم بملائكته وروح منه، ويقذف الله فى قلوبهم من أنواره، ولهم الكرامات التى يكرم الله بها أولياءه المتقين.

٣- الولى لا يتعزز ولا يتكبر فى العبادة، فهو ليس قطب الأقطاب الذى يصل بدون تكليف أو هو إنسان كامل، بل هو دائم الانقياد والخضوع إلى الله تعالى. قال تعالى: "ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْداً مَّمْلُوكاً لاَّ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ" [النحل/٧٥]، فمن ظن أنه يقدر على شئ أو وصل إلى شئ بدون الله، فلقد وصل إلى "سقر". أو من ظن أن له حال أو مقام أو درجة فهو خال من أوصاف العبودية.

٤- الولى يسقط أوصاف نفسه، فلا يرجع إلى مأوى أو معلوم، بل يعتمد دائماً وأبداً على فضل الله تعالى، فهم – الأولياء – الذين تعروا عن أفعالهم وأوصافهم وأقوالهم وأذكارهم وطاعاتهم، فلم يطمئنوا إلى شئ من ذلك، ولا نظروا إليه لفنائهم عن جميع أوصافهم. وهذا الفناء لا يعنى أن فنائهم من أوصافهم دخلوا فى أوصاف الحق، فإن الله تعالى وتقدس لا يحل فى القلوب ولكن يحل فيها توحيده وتعظيمه وهيبته. فإن مفهوم الفناء الصحيح عند الأولياء هو فناء أوصاف العبد والدخول فى أوصاف الحق، الفناء التام من إرادته ودخوله فى مراد الحق، فلا يكون له مراد مع مراده فيه فما أراد الله به أراده لنفسه فهو فناء أوصافه واتصافه بالحق. وهذا عكس مفهوم "قطب الأقطاب" التى تندرج تحت إشراقه كليات الوجود، فقد اشتمل على الجزيئات، فهو لوح القضاء والدرة البيضاء، وبالتالى فهو مبدأ الوجود وأصل الحياة والتكوين، وواسطة الخلق، ومنبع العلم. وهذا التعريف للقطب وصل بفلاسفة الصوفية إلى نظرية "الهوهو" وأضافوا أنفسهم إلى معنى يؤديهم بجهلهم إلى القول بالحلول وإلى شبيه من مقالة النصارى فى المسيح.

٥- وأخيراً أقول أن التصوف المقبول هو أن ينفرد أصحابه فى آدابهم وأحوالهم وأخلاقهم بالحق والاتصال به والانقطاع عما سواه، واستعمال الخُلق مع الخليقة، وملازمة آداب الشريعة، ولزوم الحمد والشكر لله سبحانه وتعالى فى السراء والضراء.

قائمة المصادر والمراجع

١. ابن القيم، مدارج السالكين، المجلد الثانى، دار التقوى، القاهرة، د.ت.
٢. ابن الملقن، طبقات الأولياء، تحقيق د/ نورالدين شريبة، مكتبة الخانجى، القاهرة، ١٩٧٣م.
٣. ابن النديم، الفهرست، جـ١، تحقيق جوستاف فليجل، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٦م.
٤. ابن تيمية، الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، تحقيق مصطفى العدوى، مكتبة الإيمان، المنصورة، د.ت.
٥. ابن تيمية، النبوات، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٩٨٥م.
٦. ـــــــــ، منهاج أهل السنة، جـ١، المطبعة الكبرى الأميرية، القاهرة، ١٣٢٢هت.
٧. ابن سينا، الإشارات والتنبيهات مع شرح نصير الدين الطوسى، تحقيق، د/ سليمان دنيا، دار المعارف، ط٢، القسم الرابع، القاهرة، ١٩٦٨م.
٨. ـــــــــ، رسالة فى اثبات النبوات ضمن كتاب قراءات فى الفلسفة، د/ على سامى النشار، د/ محمد على أبوريان، الدار القومية، ط١، القاهرة، ١٩٦٧م.
٩. ابن عجيبة، البحر المديد فى تفسير القرآن المجيد، تحقيق عمر أحمد الراوى، دار الكتب العلمية، ط٢، جـ١، بيروت، ٢٠٠٢م.
١٠. ابن عربى، الفتوحات المكية، تحقيق د/ عثمان يحيى، مراجعة د/ ابراهيم مدكور، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٢م.
١١. ابن عربى، رسالة المبشرات، ضمن كتاب رسائل ابن عربى، جـ١، تحقيق د/ سعيد عبدالفتاح، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط١، القاهرة، ٢٠١٤م.
١٢. ابن قتيبة، عيون الاخبار، جـ١، تحقيق، مُنذر محمد سعيد، المكتب الاسلامى، ط١، بيروت، ٢٠٠٨م.
١٣. أبوالعلا عفيفى، التصوف الثورة الروحية فى الإسلام، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٣م.
١٤. أبوبكر الرازى، منارات السائرين ومقامات الطائرين، تحقيق وتقديم د/ سعيد عبدالفتاح، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٩م.
١٥. أحمد الجزار، دراسات فى التصوف الإسلامى، دار الوفاء، ط١، الاسكندرية، ٢٠١٥م.

١٦. آدم ميتز، الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى، ترجمة د/ محمد عبدالهادى أبوريدة، أعد فهارسه رفعت البدراوى، دار الكتاب العربى، بيروت، د.ت.
١٧. أسين بلاثيوس، ابن عربى حياته ومذهبه، ترجمة د/ عبدالرحمن بدوى، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٥م.
١٨. الأشعرى، مقالات الإسلاميين، جـ١، تحقيق، محمد محى الدين عبدالحميد، مكتبة النهضة المصرية، ط٢، القاهرة، ١٩٦٩م.
١٩. البخارى، الصحيح، ترقيم د/ محمد فؤاد عبدالباقى، راجعه د/ أحمد محمد معوض، مكتبة فياض للطباعة والنشر، المنصورة، د.ت.
٢٠. التسترى، تفسير القرآن العظيم، تحقيق د/ طه عبدالرؤوف سعد، دار الحرم للتراث، ط١، القاهرة، ٢٠٠٤م.
٢١. التهانوى، كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، تقديم: سحر سامى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٧م.
٢٢. جامى، نفحات الأنس، تحقيق د/ محمد أديب الجادر، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.
٢٣. الجرجانى، التعريفات، تحقيق عبدالمنعم الحفنى، دار الرشاد، القاهرة، ١٩٩١م.
٢٤. راجح عبدالحميد كردى، نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة، مكتبة المؤيد، ط١، الرياض، ١٩٩٢م.
٢٥. الزمخشرى، أساس البلاغة، دار الشعب، القاهرة، ١٩٦٠م.
٢٦. السُلمى، أدب مجالسة المشايخ وحفظ حرماتهم، ضمن كتاب مجموعة آثار أبوعبدالرحمن سُلَمى، مؤسسة مطالعات إسلامى، طهران، ١٣٨٨هـ.
٢٧. ـــــــــ، التفسير، جـ١، تحقيق سيد عمران، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٢م.
٢٨. ـــــــــ، رسالة روضة المريدين، تصحيح/ محمد سورى، ضمن كتاب مجموعة آثار أبوعبدالرحمن سُلمى، مؤسسة مطالعات إسلامى، طهران، ١٣٨٨هـ.
٢٩. ـــــــــ، رسالة فى غلطات الصوفية، تصحيح، عبدالفتاح أحمد الفاوى محمود، ضمن كتاب مجموعة آثار أبوعبدالرحمن سُلَمى، مؤسسة مطالعات إسلامى، طهران، ١٣٨٨هـ.
٣٠. ـــــــــ، طبقات الصوفية، دار الكتاب العربى، ط١، القاهرة، ١٩٥٣م.
٣١. ـــــــــ، كتاب الأربعين للصوفية، تصحيح، محمد سورى، ضمن كتاب مجموعة آثار أبوعبدالرحمن سُلمى، مؤسسة مطالعات إسلامى، طهران، ١٣٨٨هـ.

٣٢. السُلمى، كتاب بيان تذلل الفقراء، تصحيح كنث هنرى كامب، ضمن كتاب مجموعة آثار أبوعبدالرحمن سُلمى، مؤسسة مطالعات إسلامى، طهران، ١٣٨٨هـ.
٣٣. ـــــــــ، كتاب سلوك العارفين، تصحيح سليمان ابراهيم آتش، ضمن كتاب آثار أبوعبدالرحمن سُلمى، مطالعات إسلامى، طهران، ١٣٨٨هـ.
٣٤. ـــــــــ، مسألة درجات الصادقين فى التصوف، تصحيح كنث هنرى كامب، ضمن كتاب مجموعة آثار أبوعبدالرحمن سُلَمى، مؤسسة مطالعات إسلامى، طهران، ١٣٨٨هـ.
٣٥. عبدالرازق القاشانى، لطائف الإعلام فى إشارات أهل الإلهام، جـ٢، تحقيق د/ سعيد عبدالفتاح، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٣، القاهرة، ٢٠٠٨م.
٣٦. عبدالقادر الجيلانى، الفتح الربانى والفيض الرحمانى، مطبعة البابى الحلبى، ط١، القاهرة، د.ت.
٣٧. عبدالكريم الجيلى، الإنسان الكامل فى معرفة الأوائل والأواخر، مطبعة البابى الحلبى، القاهرة، د.ت.
٣٨. العطار، تذكرة الأولياء، جـ١، تحقيق وترجمة د/ منال اليمنى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٦م.
٣٩. على سامى النشار، نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام، جـ١، دار المعارف، ط٤، الاسكندرية، ١٩٦٦م.
٤٠. فخر الدين الرازى، معالم أصول الدين، تحقيق، سامى عفيفى حجازى وآخرون، مركز الكتاب للنشر، ط١، القاهرة، ٢٠٠٠م.
٤١. ـــــــــــــ، الأربعين فى أصول الدين، تقديم د/ أحمد حجازى السقا، دار الجيل، ط١، جـ٢، بيروت، ٢٠٠٤م.
٤٢. الفيروز أبادى، القاموس المحيط، جـ٤، المطبعة الأميرية، ط٣، القاهرة، ١٩٣٣م.
٤٣. القاضى عبدالجبار، تثبيت دلائل النبوة، جـ٢، ص٥٢٨، دار المصطفى، القاهرة، د.ت.
٤٤. القشيرى، الرسالة، مكتبة ومطبعة محمد على صبيح، القاهرة، د.ت.
٤٥. الكرمانى، راحة العقل، تحقيق وتقديم د/ مصطفى غالب، دار الأندلس للطباعة والنشر، ط٢، بيروت، ١٩٨٣م.
٤٦. الكلاباذى، التعرف لمذهب أهل التصوف، تحقيق/ أرثر جون أربرى، مكتبة الخانجى، ط٢، القاهرة، ١٩٩٤م.

٤٧. المكى، روض الرياحين فى حكايات الصالحين، مكتبة زهران، القاهرة، د.ت.
٤٨. الملطى، التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع، تحقيق، الكوثرى، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، ١٩٩٧م.
٤٩. المناوى، الكواكب الدرية، جـ١، تحقيق د/ محمد أديب الجادر، دار صادر، بيروت، د.ت.
٥٠. النسفى، العقائد النسفية، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، د.ت.
٥١. الهجويرى، كشف المحجوب، جـ٢، ترجمة د/ اسعاد عبدالهادى قنديل، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٧م.